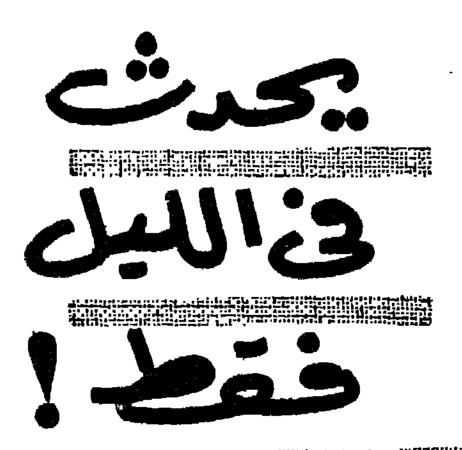
أمين يوسف غراب





الغلاف بريشة الفنان حسين بيكار

الرسوم الداخلية بريشة سعيد عارف

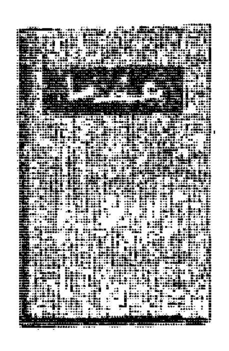
إهداء



الكأس عندما تمتـلىء .. ننتشى ..
نرتوى ..
والكأس عندما تفرغ .. يحرقنا الظمأ
نكتــوى ..
أنا كأس .. لاتفرغ .. ولا تمتلىء ..
لاترتوى .. ولا تكوى ..
انها تحطمت ..
غدت أشـلاء كأس ..
بقـايا كأس ..
فقط .. فقط .. كانت لى كأس ..

أمين يوسف غراب





كنت أودع صديقي لطفي في ميناء القاهرة الجوي هو وزوجته المريضة التي قرر الاطباء هنا ضرورة علاجها في مصحة خاصة بضواحي لندن، واختلطت دموع الأمل بالأسى والحزن .. والدعاء الى الله أن يشفي كل مريض وأن يرد كل غائب الى وطنه وكنت أنا أسير بجواره صامتا يكاد يمزقني الالم والحزن على هذه الزوجة الشابة التي مازالت في عمر الزهور .. والتي كانت كالوردة المتفتحة يتضوع شذاها وكيف أحالها المرض الى هذه الورقة الجافة • والى هذا الوجه الأصفر الشاحب الذي يشبه في صفرته وجه ميت •

وكنا أنا ولطفي قد بلغنا مقدم سلم الطائرة • فمال على وهمس في أذني وهو يخرج شيئا من جيبه ويدسه في يدي سرا •

ـ أعرف أنك تتردد كثيرا على الاسكندرية وهذا هو مفتاح مسكني الخاص ولا تنس كلما ذهبت الى الاسكندرية أن تذهب الى هناك وأن تدفع الايجار نيابة عني حتى أعود •

وانتظرت أن يقول لي شيئا آخر ولكنه أمسك عن الحديث فهممت أن أقول له شيئا وأنا أضغط على المفتاح الصغير الذي في يدي وأخفيه كما لو كان اصبعا من الديناميت ولكن قبل أن أنطق كانت

الزوجة قد أقبلت ووضعت ذراعهـا الهزيلة فوق كتفه واستندت اليها ووضع هو ذراعه حول خصرها وأسندها اليه حتى يعينها على صعود السلم ومن ثم راح يصعد معها بالفعل درجة بدرجة وقدما بقدم· وهى مستندة اليه والبكاء والنحيب يتعالى منحولها كما لو كنا فى جنازة وسلم الطائرة هو النعش الذى يشيع الاثنين الى مقرهما الاخير · وكان المنظر يبعث على الحزن حقيقة فبكيت ولما أخرجت المنديل من جيبى لأجفف دموعى اصطدمت أناملى بالمفتاح فتذكرت على الفور ماكنت أريد أن أقوله للطفى ووقفت مرتبكاغاية الارتباك· انه أعطانى مفتاح مسكن له فى الاسكندرية وطلب منى أن أدفع الايجار نيابة عنه ولكن أين هذه الشقة التى مفتاحها فى جيبى وما هو عنوانها حتى أذهب اليها وأدفع ايجارها وازددت ارتباكا عندما رأيته يتوسط منتصف السلم ولم يبق غيردرجات ثلاث ويدخل مع زوجته ويغلق باب الطائرة · ووجدت أنه من الضرورى أن أفعل شيئا فلم أجد غير الاعتماد على ذكائه وان كنت كثيرا ما أشك فيه ومع ذلك هتفت به وهو فوق السلم وقلت :

ـ انك لم تكتب لى العنوان حتى أكتب اليك ·

فرد على الفور وهو يشير الى والدة الزوجة التى كانت تنتحب بجوارى :

ـ العنوان عند حماتى

فهتفت ثانية وأنا أتميز من الغيظ :

ـ أريد أن تكتبه لى أنت

ولما أخرج من جيبه ورقة وقلما وراح يكتب وهو يحـــاول أن يخفيها عن زوجته آمنت بذكائه ولكن هذا الايمان سريعا ما انقلب الى الحاد وذلك عندما قال وهو يلقى بالورقة الى ـ العنوان قرية ريتشموند بضواحى لندن · مصحة الدكتور بيفن ـ ومن ثم دخل الطائرة وأغلق البـاب وبدأ محرك الطائرة يعـدو وتستلم هديره الآذان ·

فانحنيت فى غيظ لا حد له وتناولت الورقة التى كانت لاتزال عند قدمى وهممت أن أمزقها وأحيلها نتفا بين أصابعى ولكن كان بها عنوان المصحة وكانت والدة الزوجة لاتزال تبكى بجوارى فواسيتها حتى سارت بجانبى مع بقية الأهل حتى غادرنا مبنى المطار ولـما انفردت بنفسى فى السيارة عرفت أن الغبى هو انا لأننى عندما قرأت الورقة لم أجد مصحة الدكتور بيفن ولا اسم قرية ريتشموند· وانما

وجدت اسم شارع النزهة برمل الاسكندرية وعنوان ورقم الشقة حتى اسم البواب وجدته مكتوبا ورغم أننى اطمأننت بعد ذلك ودونت العنوان فى مفكرتى خشية أن تضيع الورقة فقـــد ذهبت الى الاسكندرية أكثر من مرة ولكنه لم يخطر لى على بال أن أذهب الى هذه الشقة أو حتى أن أعرف موقعها فقد كانت مشاغلى كثيرة • ودائما ماكنت أعود فى نفس اليوم أو على الاكثر أعود فى اليوم الثانى واذا اضطررت للمبيت فكنت دائما أنزل فى فندق كاليتيا وهو قريب من عملى الى أن ذهبت ذات مرة الى الاسكندرية وكنت بحكم العمـــل سأمكث بها ما يزيد على الاسبوع وكنا فى بداية الشهر أيضا • فرأيت أن أذهب الى الشقة لكى أدفع الايجار على الأقل • ولما ذهبت الى هناك دهشت دهشة كبيرة فقد كانت العمارة غاية فى الفخامة وكان مدخلها يبعث على البهجة ونظرت أول ما نظرت الى صناديق البريد الأنيقة التى كانت على الجانب الأيسر من المدخـــل الكبير وبحثت عن الصندوق رقم ٤١ وهو رقم الشقة فرأيته يكاد يكون الصندوق الوحيد الذى لايحمل اسم صاحبه •

ولما صعدت الى الشقة وفتحت الباب وقفت مبهورا أنظر الى الجمال والأناقة التى تحيط بى فقد كان الرياش فاخرا تنبعث منه رائحة النعمة والثراء وأيضا الذوق •

حقيقة كانت الشقة جميعها لاتزيد على غرفة نوم واحدة وصالة ومدخل صغير يستقبلك فيه عندما تفتح البـــاب تمثالان كبيران لامرأتين عاريتين تحمل كل واحدة فى يدها مصباحا صغيرا كأنها تبحث عن حقيقة ضائعة فى ثنايا جسدها العارى • وتخفى بيدها الثانية ثديا تكور داخل راحتها الحانية عليه • وبمثل هذه اللمسات التى تدل على ذوق فنان كانت فخامة الصالة ورياشها وتنسيقها • وكذلك أيضا غرفة النوم التى كانت تشـــبه فى فخامتها وأناقتها غرفة نوم ملكية رغم أنه ليس بها غير سرير غرق فى احدى الزوايا فى قلب الستر الحريرية التى تحيط به • وسجادة دائرية نصفها بلون الورد الاحمر ونصفهـــا الآخر بلون شراب الاناناس وكانت أغلب جدران الغرفة ولعلها جميعها مغطاة بمرايا بللورية ناعمة الصفاء • وما أن لمست بعض مقابض هذه المرايا حتى عرفت أنها لم تكن غطاء للحائط فقط وانما هى أيضا أغطية لدواليب عـــدة داخل الحائط بها الكثير من الحاجات التى يحتاج اليها الرجل • والكثير أيضا من الحاجات التى تخص المرأة •

ووقفت مأخوذا أتطلع الى هذا الجمال كله • وبالذات جمـــال

الشرفة الكبيرة التى تطل على ميدان فسيح • والتى تشـــبه فى موقعها الجميل أرجوحة معلقة فى الهواء فلم أملك الا أن أحسد لطفى الذى لم أكن أعرف أيضا أن له أية مغامرات • ووقفت أقارن بين هذا المسكن الجميل وبين الغرفة التى اعتدت أن أحتجزها فى فندق كاليتيا كلما جئت الى الاسكندرية ، وكيف أننى فى كثير من الليالى كنت أنهض مذعورا على صوت صفعات تنهال على انسان فى الغرفة المجاورة لى وما أن أنصت لحظات حتى أعود وأسحب الغطاء على وجهى وأتركه يفعل كما أفعل أنا أيضـــا كل ليلة اذ أضرب أو أقتل أكثر من صرصار بالشيشب •

وعلى الفور استقر رأيى ولم أتردد فى قضاء بقية أيام الاسبوع الباقيــة لى فى الاسكندرية فى هـــذا العش الجميــل • وبالفعــل أدرت الثلاجة وفتحت بعض النوافذ • وبتفكير غير مسبق ولاالسبب كنت أعنيه وجدتنى أرفع سماعة التليفون • ومن ثم غادرت الشقة وذهبت الى فندق كاليتيا لأحضر حقيبتى من هناك تغمرنى فرحة لا أعرف الباعث عليها •• تماما كما كنت لا أعرف الباعث الذى دفعنى الى رفع سماعة التليفون • ولكنى عندما فكرت عرفت أن العقل الباطن أحيانا يفكر بخبث لأننى أدركت على الفور لماذا رفعت السماعة •• ان هذاالمسكن الخاص فى الاسكندرية وصاحبه لطفى يقيم فى القاهرة وهو لا يتردد عليه كثيرا ولا يتردد عليه فى أوقات منتظمة ولذلك فهو لا يتصل بصديقاته فى أوقات منتظمة ولا يتصــل بهن الا اذا جاء • وهن أيضـــا لا يتصلن به فى أوقات منتظمــة ولا يتصلن به الا اذا جاء • ولا يعـــرفن بذلك الا اذا ضربن له التليفون فاذا لم يجب أحد فهو غير موجود• أما اذا أجاب فقدانتهى الأمر أما اذا ظل التليفون مشغولا فاذن هو موجـــــود ، واذن سيوالين الاتصال به مرة ومرات حتى يجيب ••

وسرنى هذا الذى فعلت وسرنى أكثر ما اكتشفته فى نفسى فجأة فأنا الى لحظات قصار كنت أتهم عقلى الباطن بالخبث فاذا بهذا الخبث يتكشف لى عن هذا الذكا الكبير •

وبسرعة كنت قد صفيت حسابى مع فندق كاليتيا وحملت حقيبتى وعدت الى العش الجميل وبينما أنا أدخل العمارة التقيت بالبواب وكان يحمل بعض الحقائب لأسرة مسافرة وبعد أن وضعها فى سيارة مرسيدس صفراء انتظرت حتى ركبت الأسرة : زوج وزوجة وثلاثة أطفال وخلص البواب من مهمته فاستدعيته وعرفته بشخصى وصلتى بلطفى فرحب ترحيبا كبيرا فأنقدته مبلغا من المال ليشترى

لى أشـــياء كثيرة : زيتون وجبن ومربى وزبد وما الى ذلك مما سأحتاج اليه • وكنت أنا قد أحضرت معى زجاجة من الشراب الذى أحبه ومن ثم صعدت سريعا الى الشقة وكان أول شيء فعلته أننى أعدت سماعة التليفون الى مكانها وكانت الساعة قد قاربت الثامنة مساء وكان الجو مازال حـــارا فنزعت ثيابى وارتديت ثوبا منزليا خفيفا • وكان البواب قد جاء فوضعت كل ما أتى به في الثلاجة وغسلت بعض الاطباق ولا اذكر اننى فعلت هذا من قبل ولا أيضا شعرت بمثل هـــذه السعادة وكلما أنصت الى جـرس التليفون أو نظرت اليه وترقبت رنينــه ازدادت امالى وازدادت سعادتى •

ولما فرغت من كل هـذا ذهبت الى الشرفة وجلست وبجوارى التليفون وأمامى الزجاجة والثلج وبداية ليل جميل ومن حولى ضوء الشرفة الخافت الذى يريح الاعصاب الثائرة ويحيل ثورتها الى أمن وطمأنينة وحلم لذيذ • وأمامى فى الشرفة ميدان فسيح تتماوج فى قلبه نسمات كالعرائس وتقبـــل على الشرفة تتهادى موجة اثر موجة • ورأيت فيما رأيت أمامى وحول الميدان الفسيح الكثير من العمارات الشاهقة والبنايات الفخمة والفيلات الأنيقة • كما رأيت مصادفة فيما رأيت وأمامى وقبـالة الشرفة مباشرة • رأيت دائرة واسعة من نور يتألق تدور حول شيء أو كأن شخصا هو الذى يدور حولها • وكانت الدائرة عالية جـــدا حتى لكأنها معلقة فى السماء • ولما اتضحت لى الرؤية رأيت شخصا بالفعل يدور في قلبهاوهو يردد بصوت رخيم عذب ترامىالى أذنى كصوت كروان وكان يرتل اسم الله ويذكر اسم رسوله فعرفت على الفور أنه مسجد ورأيت بالفعل ساحته وكانت غاصة بالمصلين• كما رأيت بعض السابلة يهرعون من يمين ومن شمال وما أن يبلغوا الساحة ويدخلوا بعد أن ينزعوا أحذيتهم حتى يرتموا فى خشوع بين يدى الله يحوقلون ويستغفرون ويسألونه المغفرة • ورحت أتعمق الرؤية جيدا وأصغى فى متعة زائدة الى ذلك الصوت العذب وهو يردد اسم الله واسم نبيه • فشعرت برهبة • كما أحسست كأن الصوت لاينساب فى أذنى وانما ينساب فى كيانى، كما تنساب ابرة المخدر فى الشريان فترطب الجسد وتخدره وتجعله يهتز تلك الهزات الخفيفة الراعشة التى تنتهى بخلجة فىالعين أو رجفة فى الجفن ثم تنغلق وتغيب سابحة فىالسماء •• وتناولت منديلا كان بجوارى وجففتعرقا كثيرا كان يتصبب من وجهى • ثم بعد حين ابتسمت وابتسمت فى سعادة فاضت على كيانى كله وأنا أستشعر الرضا لأن الله لم يرده

لى السوء الذى أردته أنا لنفسى هذه الليلة • اذ فتح عينى فى آخر لحظة على شر كنت سأتردى فيه طول حياتى •• فأنا لم أعرف النساء الا بعد أن تزوجت ومنذ الخمسة عشر عاما التى تزوجت فيها لم أعرف غير زوجتى ولم أحب سواها • حقيقة أن أحدا لم يكن يصدق عنى هذا • فمنظرى وطبيعة الحياة التى أعيشها تدل على العكس • فأنا أحب الضحك وأحب السهر وأحب الأصدقاء وأحب مجاراتهم • وقد جاريتهم بالفعل فى بعض الاخطاء • قامرت ولعبت معهم الورق وراهنت على السباق وشربت الخمر • ثم عدت فأقلعت عن هذا كله • عن هذه العادات جميعا بعد أن وجدتها وبالا ما بعده وبال •• حقيقة أننى لم أستطع أن أقلع عن خطأ واحد وهو الخمر• ولكنى شذبت هذاالخطأ وروضته ولمأجعله يخضعنى له وانما أخضعته لى • كرجل شريف وكموظف له قدره • وكرب أسرة له احترامه ، وهى أيضا لها احترامها فأنا لا أشرب فى مكان عام • ولا أشرب نهارا ولا أشرب الا فى المناسبات • وان كان يحلو لى أحيانا وقبل أن انام أن أتناول كأسا وأتناولها سرا كما لو كنت أرتكب احدى الجرائم •

فكرت فى كل هذا ، وفكرت فيما كان سيحدث لى فيما لو ترديت هذه الليلة فى الهاوية •

وفى غمرة هـذه الفرحة بالنجـاة مددت يدى ورفعت سماعة التليفون حتى لا أسمع رنينه البشع الذى كنت من لحظات أود لو شنفت به أذنى ، ومن ثم رحت أتعجب لمشاعرنا كبشر وكيف أن الشىء الذى أحيانا نتلهف عليه يكون هو نفسه الشىء الذى نخافه ونهرب منه ، وكيف أننا أحيانا لا يستهوينا الا نصل السكين الذى نذبح به •

لم أكن قد تناولت عشائى بعد ، فذهبت الى الثلاجة وأعددت لى طبقا حافلا وعدت الى الشرفة وجلست أتناول عشائى فى هدوء وأشرب كأسى فى هدوء وأدخن أيضا فى لذة مابعدها لذة ، فقد كانت السيجارة هى حياتى ، وأحسست وأنا أدخن بشوق زائد الى بيتى وأسرتى ، والى زوجتى بالذات •• حتى وددت أن أرتدى ثيابى وأخرج الىالطريق فىهذا الوقت من الليل وأبحث عن تليفون عمومى وأتحدث اليها فقط وأسمع صوتها ••

ولما وجدت الموقف غير مناسب رحت والكأس أمامى أتعمق أشياء كثيرة ، وأفلسف أشياء كثيرة•• وأمد أيضا عينى فى الظلام الى أشياء كثيرة كانت أمامى •• فرأيت مرة أخرى الميـدان الفسيح والبنايات الشاهقة والفيلات الانيقة ، ورأيتها هذه المرة فى هـدأة



الليل وقد فتحت بعض شرفاتها ونوافذها حينا على ضوء باهر تستطيع أن ترى على نوره بوضوح كتفا عارية هنا ، أو صدرا ناهدا هناك ·· أو ترى لفتة من جيد فى هذه النافذة ، أو هزة من ردف فى تلك الشرفة ·· كما رأيت أيضا بعض هذه الشرفات والنوافذ وهى تنغلق فى الليل على ضوء خافت تستطيع أن ترى لونه المثير الابيض أو الاحمر من خلف الزجاج والستر الناعمة فيثير فيك اللون الكثير من كوامن الرغبة ·· وكنت كلما وضحت الرؤية وتعمقت هذا الجمال وتخيلت أضواء كنوزه ، وتصنت فى الليل على همسات الصمت الملتف بتلك الغرفة أو بتلك الشرفة كما يلتف الجسد بالغلالة الناعمة التى تحجب سره وتكشف عن مفاتنه ·· أحسست كأن همسات هذا الصمت فى الليل تنصب فى أذنى كسياط تنهال فوق جسدى ·· حتى أننى توجعت بالفعل ·· ولما حاولت أن أشد نظراتي وأبعدها عن هذا الاذى لم أقدر · مددت يدى ثانية وأعدت سماعة التليفون الى مكانها وجلست أنتظر ، وكلما طال انتظارى وشعرت بلسعات النار تحرقنى ملأت الكأس وتبردت بها ، وظللت كذلك ولم أدر كم من الوقت قضيته فى هذا العذاب ·· الى أن دقت ساعة كبيرة كانت فى الميدان دقتها الثانية صباحا ·· فتناولت علبة سجائرى ونهضت مثخن الجراح وغادرت هذه الشرفة اللعينة كما يغادر المحكوم عليه بألف جلدة الساحة بعد تنفيذ الحكم · وذهبت الى غرفة النوم واستلقيت أضمد جراحى فوق الفراش الوثير اشعل سيجارة من أخرى ، وأغمض عينى حتى لا أرى المرايا التى تحيط بى والتى ينعكس على صفحاتها الدقيق من الخيالات وينعكس فى سحرية لاذعة تهزأ من هذا الفاشل الذى تعذبه الوحدة ويقتله الظمأ ويفرى عظامه سوط الجلاد ·· ومن طيلة ما أغمضت عينى أحسست بأننى أحلم احلاما لذيذة ولعله كان ألذها صوت جرس كان يشبه صوت جرس الباب يرن فى أذنى ، وكأن لذة الحلم كانت دافقة ففتحت عينى سريعا وجلست القرفصاء فى قلب الفراش ·· امسح على عينى وأمسح أيضا على أذنى ·· ولكن صوت الجرس الذى استمعت اليه فى الحلم كان لايزال ينساب فى أذنى فى اليقظة ، فدهشت وتصنت جيدا فاذا به بالفعل صوت جرس يرن فى الليل ، ولكن صوته كان غريبا ، ليس هو بصوت تليفون ·· وليس هو بصوت جرس البيت ، ولما نهضت وتوسطت الغرفة ترامى الرنين الى أذنى اكثر وضوحا ، وازداد فى الوضوح عندما توسطت الصالة ، واذن هو حقيقة وليس حلما ، فمسحت على عينى ثانية وعلى اذنى أيضا ·· واقتربت من الباب الخارجى ووقفت خلفه مباشرة ولكنى

لم أر أحدا ، ومع ذلك ظل الرنين الذى يشبه النداء من بعيد أو الهمس فى الليل ظل ينساب فى أذنى ، ولكن من أين لاأدرى•• ولما كنت أريد أن أعرف مددت يدي وفتحت الباب ، وما أن فعلت حتى رأيت أمام المسكن المقابل لى تماما سيدة فى مقتبل الشباب وبسمة العمر تقف فى قلب ضوء السلم الخافت وكأنها طلعة الفجر فى قلب الغبش ، وكانت تمد ذراعا عارية ازدحم بياضها فى ضوء عينى فلم أر منها غير اصبع كانت تضغط على زر جرس الباب الذى أمام مسكنى ، وما أن رأتنى حتى تضرج وجهها بحمرة كالشفق وقالت فى خجل تجاهد عينيها لتنظر الى ••

ـ أسفة جدا •• اننى أدق الجرس على هذه الاسرة ••

فقلت وأنا أنظر الى حقائب سفر ثلاث كبيرة كانت حولها ••

ـ عفوا ولكن ••

فلم تجعلنى أتم ، وقالت وهى تمد أصبعها ثانية الى الجرس وتضغط عليه هذه المرة فى عنف ••

ـ كان المفروض أن أكون الآن فى بيتى فى القاهرة ولكن الباخرة تأخرت عن موعدها أربع ساعات ولم تصل الميناء الا بعد منتصف الليل فجئت الى أقاربى هنا لابقى عندهم حتى الصباح ••

فشعرت بحرج شديد وقلت وأنا أنظر ثانية الى الحقائب الضخمة التى معها ••

ـ ولكن أغلب الظن أن هذه الأسرة سافرت الليلة ••

ارتدت ذراعها فى ذعر وكأن الزر الكهربائى الذى كانت تضغط عليه ناب أفعى انغرس فى اصبعها ، وقالت وهى تشهق :

ـ سافرت ؟

ـ رأيت زوجا وزوجة وثلاثة أطفال وبعض الحقائب توضع فى سيارة صفراء ، كما رأيت الزوج يغلق هذا الباب جيدا بالمفتاح ••

فشحب وجهها الابيض الوردى حتى غدا بلون الاناناس ، وقالت وكأنها تزفر :

ـ انها بالفعل خالتى وزوجها وعندهما ثلاثة أطفال وسيارة صفراء ••

ومرت لحظات قصار جدا وكانت أيضا فى نفس الوقت طويلة جدا نظرت فى خلالها الى ساعة كانت فى يدها وتمتمت بصوت كأنه أنات شاد أصابه سهم ••

ـ ا ٠٠ ا ٠٠ السا ٠٠ عة الآن الثالثة والنصف ٠٠

واحسست أن شيئا كبيرا ضخما اسمه الواجب يهز كيانى هزا عنيفا، ويحتم على أن أقول شيئا وأن أقوله بصدق واخلاص وأمانة ٠٠ ولكن اتضح أن الواجب ايضا يحتاج أحيانا الى شجاعة كبيرة قد لا تقدر عليها فى كل وقت ٠٠ لانني ارتبكت وتلعثمت وتعطلت شفتاى وغدتا كترس ماكينة بهـا عطب فلا تقوى على رفعهما ٠٠ وكأنها لاحظت ذلك ولكنها كانت أكثر منى شجاعة لانها قالت وهى تنظر الى دبلة ذهبية كانت فى اصبعى :

ـ حضرتك متزوج ؟

ـ وعندى أولاد ٠٠

فقالت فى فرحة زائدة وذلك الشحوب الذى كان يكتنف وجههـا الابيض الوردى أخذ فى التلاشى :

ـ اذن هل تسمح السيدة زوجتك فى أن أقضى معها هذه الساعات الباقية على النهار ؟

فتعطلت شفتاى ثانية ولم أنطق ٠٠ فقالت وقد ظنت كل شىء غير الذى كنت أفكر فيه ٠٠

ـ ولكنى أخشى أن هذا يسبب لها ازعاجا فشكرا ٠٠

ثم ألقت بعينيها الى الحقائب الكبيرة تتفحصها ٠٠ فقلت فجأة وقد انطلقت الماكينة تزمجر وتدير التروس فى مهارة فائقة ودقة فى المنطق وصفاء النية ٠٠

ـ أحب أن أقول شيئا ٠٠

ـ تفضل ٠٠

ـ ان البشر مختلفون ، ولكنهم « متفقون » دائما فى شىء واحد وهو انسانيتهم ، بدليل أن الشرير مهما كان شريرا دائما تمر عليـه لحظات يكون فيها الانسان الذى له ضمير وله خلق ، وله ايضـا مبادىء ٠٠

ـ لماذا تقول هذا ؟

فاستطردت دون توقف :

ـ وأنت سيدة يبدو أنك مثقفة ثقافة عالية ، ويبدو أيضا أنك غير هيابة وواثقة من نفسك تماما بدليل ٠٠

ونظرت الى الحقائب التى معها والساعة التى بلغت الثالثة والنصف صباحا وقلت :

ـ بدليل أنك آتية الآن من سفر ٠٠ أين كنت ؟

ـ فى أوروبا أزور شقيقتى المقيمة هناك ٠٠

ـ هل سافرت وحدك ؟

ـ أجل ٠٠

ـ وعدت وحدك ؟

ـ أجل ٠٠

ـ اذن فكل الامور بيدك أنت ودائما ستكون بيدك أنت ٠٠ وهذه ميزة أو هى حقيقة وجدت فى الانثى ولم توجد فى غيرها من سائر البشر ٠٠

ـ ماذا تعنى ؟

ـ أعنى أنك سوف تصدقين ما اقوله لك ، ان زوجتى وأولادى ليسوا معى الآن ٠٠

وأنا كشقيق لك ، فأحد أمرين اما أن تصدقى هذا وتبقى عندى حتى يطلع النهار ، واما أن أترك أنا لك البيت حتى الصباح ٠٠ وأنا رجل وأعرف كيف أتصرف فى هذا الوقت المتأخر من الليل ٠

فصمتت قليلا ونظرت ثانية الى ساعتها ثم الى الحقائب التى معها ٠٠ ومن ثم أفتر ثغرها عن ابتسامة اطمئنان أعادت اليه اشراقته ولونه الابيض الوردى وهى تمد يدها لتمسك ببعض الحقائب وتحملها :

ـ ان من يقول هذا فهو بلا شك انسان ٠٠

وحملت عنها الحقائب وأدخلتها الى الصالة ، وكنت قد أضأت النور ودعوتها للدخول فدخلت ولكن بحذر حتى أن قدمها كانت تضطرب وهى تتحسس بها الارض التى تسير عليها لاول مرة ، كما لو كانت قدم أرمسترونج وهى ترتعد عندما وطىء بها أرض القمر لاول مرة ٠٠ وهل هى بالفعل صلبة متينة ومطمئنة أم هى لزجة طرية ومن طين أو وحل قد تغوص فيها قدمها وتسقط وتسبب لها المتاعب ٠٠ ويظهر أنها وجدتها كذلك «غير مطمئنة» لانها عندما توسطت الصالة ورأت نظامها ونظام المسكن وغرفة النوم الواحدة والمرايا التى تغطى جدرانها ، امتقع وجهها وشحب وعادت اليه صفرته التى بلون الاناناس وبريق كأنه وقد الجمر يلتمع فى عينيها وقالت :

ـ ولكن هذا ليس مسكن أسرة ••

فأسقط فى يدى ، وشعرت بحرج شديد وخشيت لو أنها فطنت الى ارتباكى وظنت بى السوء ، ولذلك وبنفس القوة التى كانت تدفع الماكينة والدقة فى المنطق والصفاء فى النية ، قصصت عليها الحقيقة كاملة ، وقلت لها كل شىء منذ اللحظة التى دس فيها لطفى المفتاح اللعين فى يدى فى المطار ، الى هذه الليلة التى دخلت فيها هـــذا المسكن لاول مرة فى حياتى • ويبدو أن الحقيقة والكذب ، والاخلاص والنفاق ، وما الى ذلك من المتناقضات فى الخلق كالالوان تماما ، هذه نتعرف عليها بالرؤية ، وهذه نتعرف عليها بالسمع •• لانهـا صدقت على الفور كل ما قلته لها ••

وقالت فى ارتياح الواثق وهدوء المطمئن :

ـ وأين ستنام أنت ؟

ـ فى الشرفة ••

ـ ولماذا لا يكون العكس ؟

قالت هذا وهى تهم بالفعل أن تذهب الى الشرفة •• فارتبكت اذ خشيت أن ترى الزجاجة والكأس فتستاء من جديد وتعود وتظن بى
ض طريقها :

أنا وكنت الآن فى بيتك هل كنت

ـ ولكنه ليس بيتك أيضا ••

وأشهد بأن ضحكتها هزت قلبى •• لا من أجل رنينها العـذب الذى ينتشى له القلب ، ولا من أجل رعشـــة شفاهها الحلوة وهى تضحك وكأنها رعشة الورق وهى تفتر لطلعة الفجر ، وانما اهتز قلبى من أجل هذا الخير الذى قدرت أنا عليه اذ أتحت لطائر حائر فى الليل أن يطمئن وأن يجد له عشا حتى الصباح ••

ثم بعد لحظات تعمقت فيها هـذا المسكن اللعين مرة أخرى •• نظرت حينا الى غرفة النوم •• وحينا الى باب الحمام الذى كان هو الآخر كباب الغرفة مسحورا يدخل ويخرج من الحائط ، وكان هو الآخر من الزجاج المصقول الذى لا ترى من خلاله شيئا ، وان كنت فى الحقيقة تستطيع أن ترى فى الخيال كل شىء ، قالت :

- اذن تفضل أنت ونم كما تشاء ٠٠ فقط لا تؤاخذني اذا سببت لك ازعاجا وتركت النور مضاء الى حين حتى أصلي العشاء ٠٠

وكنت أنتظر أن تقول شيئا أى شيء ، أو تفعل شيئا أى شيء الا أنها تصلى ، ورغم أن هذا أسعدنى وادهشنى أيضا ، وحتى لاتلاحظ دهشتي قلت سريعا :

- بل دعى النور مضاء حتى الصباح ٠٠

فقالت وهي تتركني وتتجه الى غرفة النوم :

- لا أبدا ٠٠ حتى أصلى فقط ، فقـــد تعودت دائما أن أصلى العشاء فى موعدها ، ولكن الليلة وبسبب الباخرة ومتاعب السفر لم أستطع ذلك ٠٠

ثم وقفت فجاة وقالت وهى تستدير كمن تذكر شيئا هاما ٠٠

- ولكن بالمناسبة ، اين القبلة هنا ؟

فتعالت أنفاسى ، ولولا أننى تذكرت فجاة الذين شاهدتهم يصلون فى المسجد أول الليل لارتبكت ارتباكا شديدا ٠ ولما اشرت اليها الى مكان القبلة هزت رأسها شاكرة فاهتزت أيضا خصلات كثيرة من شعرها الاسود الفاحم كما تهتز موجات من الظلام فوق احدى القمم فى الليل ومن ثم دخلت الى الغرفة ٠ وانصرفت من أمامى ٠ فانصرفت انا أيضا الى الشرفة أجر ساقى من ثقل لا ادرى الباعث عليه وتمددت فوق الكنبة الوثيرة فى الظلام ٠ ومن ثم رحت فى الليل انظر الى النجوم ولا ادرى هل كنت اعدها أم كنت أعد أنفاسى التى كانت تترى سريعا وكاننى حيوان يلهث ٠ وظللت كذلك الى أن حانت منى على الرغم منى التفاتة الى الداخل فرايت محتويات المسكن جميعه كان هذا نظامه سواء وانت فى الشرفة أوفى الغرفة او فى الصالة فانت ترى كل شيء حتى لكأن كل ذلك غرفة واحدة ٠ ورأيت فيما رأيت من شتى المحتويات الجميلة ٠ رأيت اجملها ، أو لعله أجمل مارأيت طيلة حياتي٠ رأيتها كانت خارجة من الحمام ومتجهة الى غرفة النوم ، وكانت ترتدى ثوبا غريبا كان الثوب ناصع البياض وكان فضفاضاالى حد كبير حتى لكأنه على جسدها كالعباءة يتسع لثلاث أو أربع غيرها ، فدهشت ، انه ليس ثوب نوم وليس ثوب خروج ، وهو أيضا ليس ثوب بيت ٠ وأخيرا أدركت أنه لابد أن يكون ثوب الصلاة ، وكانت تجفف ذراعيهـا وهما كل ما رأيتــه عاريا من جسدها ٠ ثم لما توسطت الغـرفة وكانت قد مسحت علىوجهها أيضا أخرجت من احدى الحقائب - بشكيرا -

كبيرا وفرشته فوق السجادة ومن ثم اتجهت الى القبلة كما وصفتها لها وبدأت تصلى ٠٠ كان المنظر مثيرا حتى أننى من شدة حرقته حاولت أن أغمض عنه عينى ولكنى لم أقدر ٠٠ لم أستطع ٠ أبدا أن أغمض جفنى ٠ وكنت كلما رأيت هذا الثوب الفضفاض كأنه الموج ٠ يتماوج من امام أو من خلف وبرز مع الموج ردف أو لاح ثدى احسست بالدم يزأر فى كيانى كما تزأر النار ٠ أما اذا رأيتها وهى تركع أو تسجد ورأيت أشياء كثيرة ورأيتها بوضوح أحسست بالحريق يأكل جسدى ويفرى عظامى حتى وددت أن أصرخ .أما اذا انتصبت واقفة بجسدها الفارع الطويل داخل ذلك الثوب الفضفاض أحسست بالنظرات تنطلق من عينى وهى تزمجر وكأنها الصاروخ الجبـار ساتيرن ٥ وهو ينطلق به الى هذا القمر الذى هو قمـر بالفعل ويدور بى فى متاهاته ٠ ويغرقنى أحيــانا فى بحوره ٠ أحيانا فى بحر العواصف تتقاذفنى أمواجه ٠ وأحيانا فى بحـر الهدوء أتحسس ملمسه الناعم ٠ وأحيانا فى بحر الصفاء يرتاح قلبى ٠ واخرى فى بحر البخار اللذيذ أستنشق فى نشوة أنفاسه الدافئة ٠ وبينما كانت هذه البحور جميعا تتقاذفنى وتلقى بى من فوق هذه الربوة الى ذلك المنخفض من فوق تلك القمة الى دائرة تلك الانحناءة كانت هى قد خلصت من صلاتها وأطفأت النور وأوت الى الفراش عند ذلك شعرت بما يشبه الاختناق فنهضت سريعا وجلست فوق الكنبة فى الشرفة أسترد أنفاسى وأجفف حبات العرق التى كانت تتصبب من وجهى حينا كحبات الثلج وحينـا كحبات النار تلدغ كل جارحة فى ٠ ولما لم اقو على احتمال هذا العذاب، فكرت فى أن أطفىء هذه النار بأى ثمن ٠ بالوجود بالخمر بالدنيا بحياتى هذه التى تحترق وفكرت فى أن أعمل شيئا ، أى شىء ٠ ولكنى فجأة وعلى غير انتظار رن فى أذنى صوتها وكان نظيفـا صافيا كأنه الطهر « ان من يقول هذا فهو بلاشك انسان » فثبت الى رشدى على الفور وتصبب منى العرق ثانية ولكنه كان هذه المرة أشبه بعرق الخزى فبسملت وحوقلت واستعذت بالله من الشياطين جميعا التى همست لى بما همست ٠ وأحسست برغبة شديدة فى أن أشرب سيجارة ومددت يدى فى هدوء جم وصفاء يفيض على كيانى كله وتحسست علبة السجاير لأشعل سيجارة ٠ ولكنى لم أجد العلبة بجوارى ٠ فرحت أبحث عنها فى الظلام وكلما افتقدتها أحسست برغبة لا تقاوم فى العثور عليها ٠ وفجأة تذكرت شيئا مروعا ، تذكرت أن علبة السجاير فى غرفة النوم بجوار الوسادة أو فوق الكمودينو حين كنت أدخن فى الفـــراش وأنا أحلم بأن

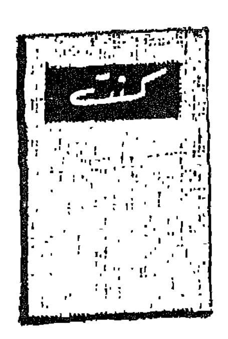
جرسا يدق في الليل ٠ وأسقط في يدى فقد كانت رغبتى للتدخين في هذه اللحظة تكاد تبطش بى٠٠اننى أريد أن أشرب سيجارة ٠٠ سيـــجارة ٠٠ أن التهمها ٠٠ أن أحتسيهـــا ٠٠ أن آكلها أكلا ٠ وأحسست أننى كالمدمن ان لم يحقن بالمخدر سريعا دهمته الازمة٠ لدرجة أننى مددت يدى الى المنفضة التى أمامى لعلني أجد فيها عقبا واحدا أو بقايا من عقب أحتسى منه ولو نفسا واحدا فلم أجد٠ ونظرت حولى فلم أر غير الظلام٠ ونظرت من الشرفة الى الطريق فلم أجد أيضا غير الظلام ٠ حتى مصابيح الشارع كانت مطفأة ٠ وما بقي منها كان شاحبا مصفرا كوجه ميت ٠٠ ولما لم اقو على المقاومة فكرت ٠ وفكرت في أناة وتريث وتعقــــل أيضا ٠٠ اننى بلاشك حسن النية واننى بلاشك لا أقصد سوءا ٠ واننى رجـــل وانسان له خلقه ومبادئه وعهوده التى تعهد بها ٠ وسوف أكون كذلك بالفعل ٠ وليس كماوعدتها فقط وانما كماوعدت نفسى أيضا٠ فلماذا لاأذهب الآن الىالغرفة وأطلب منها أن تعطينى علبةالسجاير ان كانت ماتزال مستيقظة ٠ أو أتسلل الى الغرفة وأتناول العلبة وأخرج ان كانت نائمة ٠ وأناأعرف مكانها بالضبط ٠ ولم أتردد ــ وعندما وقفت عند الباب في الظلام سمعت أنفاسها تترى ٠ مما يدل على أنهـــا مستغرقة في نوم عميق فقـــد كان صوت الشهيق والزفير مسموعا ٠ فعالجت الباب في رفق وفى حذر أيضا كما يعالجه تماما لص مدرب ، وقد علم الله أننى لست كذلك ٠ ولمـــا انفتح دون أن يحدث صوتا كما كنت أريد ؛ دلفت أتحسس الخطى ومددت يدى في حذر ما بعده حذر ٠ بيد أننى ما كدت أفعل حتى انتفضت فجأة واقفة أمامى وكأنها الوحش الذى يريد أن يقتلنى وفى ذعر مروع أطبقت بيديها على ذراعى وهى ترتعش وترتجف وتصرخ في خوف مسعور ٠٠ أرجوك ٠٠ أتوسل اليك ٠٠ ظننتك رجلا ٠٠ لقد وعدتنى ٠٠ لقد وعدتنى ٠٠ لا تلوثنى أرجوك ٠٠ لا تقض على حياتى ٠٠ أخرج ٠٠ أخرج ٠٠ أرجوك ٠٠ أخرج ٠٠

فارتج عقلى وحاولت أن أتكلم فلم أقدر ٠٠ حاولت أن أقول لها الحقيقة فتجمدت شفاهى ولماراتنى كذلك ازدادت خوفا٠٠ وذعرا٠ فحاولت أن أنتزع يديها من ذراعى لأخـــرج كما أرادت ٠ ولكن أصابعها من شدة الخـــوف والذعر كانت قد انغرست في لحم ذراعى وأطبقت عليها وتجمدت كأنها قبضة من حديد ٠ وكنت أنا أيضا من الخوف كلما حاولت أن أخلص ذراعى وأبتعـــد عنها أقترب منها دون أن أدرى٠ وكانت هى أيضا كلما دفعتنىالى أمام في خوف وصرخت في وجهى ٠ اخرج ٠٠ اخرج التصقت بى في

خوف اكثر وفى ذعر اشد •• واحسست بيمين صـــدرها يلتصق بصدرى فارتعشت واضطربت ولذت بها مرتعدا كطفل• واحسست بأنفاسى التى تشبه لفحات النار تحرق وجهها ونصف صـــدرها العارى فارتعبت وجحظت عيناها وانفرطت تبكى وكأنها أحست بتخاذل ساقيها وخافت أن تسقط وأن تنهزم فاستندت الى صدرى والقت براسها فوقه وراحت تبكى • وبكيت أنا أيضا • وتسـاقطت دموعها فوق صدرى وتساقطت دموعى فوق خـــديها • ومكثنا كذلك نبكى • وتعالت خلال الدموع انفاسها التى كانت لفحات • وفى بطء شديد اخذ كلانا يتحرك• أخذت أناملها تعود اليهاالحياة وتتحرك حول ذراعى • ولما تخلصت منها نهائيا رفعتها • رفعت ذراعها فى ثقل لا حد له • والقت بهـــا فوق كتفى • عند ذلك تناولت يدها الثانية واخذت أمسح بشفتى كل اصبع فيها • على كل أنملة من انامِلها • وكانت قد رفعت وجهها قليلاً والذى كانت تغطيه الدموع فاقتربت أنفاسها من وجهى • وفى الليل والظلام استطاعت ذراعها أن تجد لها مكانا فوق كتفى فاستراحت عليه • كما استطاعت ذراعى أن تجـــد لها مكانا أيضا حـــول الخصر فاستكانت حوله • ومن ثم راح كل منا يبحث عن مصدر هـــذه الانفاس فى الليل فارتعشت شفة واختلجت أخرى • وهمهم ثغر وارتجف آخر • وفجأة دوى صوت ارتعدت له فرائصنا • دوى فى أذنينا كأنه النار النار التى تزأر •• كأنه البزكان هز الارض تحت أقدامنا فسقطت هى على الفور عند قدمى كحزمة من هشيم تحترق وبدل أن كانت تبحث فى الظلام على شفاهى لترى مصدر النـــار فتطفئها • أخذت تبحث عنـــد قدمى عن مصدر للغفران فتستقر• وبينما كانت تقبل قدمى لكى أخرج• كان صوتها المحموم يترامى الى أذنى كأنه النذير •• أرجوك لا تلوثنى •• لا تلوثنى •• اخرج •• اخرج •

ولما خرجت كان ذلك الدوى الهائل لايزال يرن فى أذنى • ولما انصت اليه • كان عذبا رخيما • تماما كالذى استمعت اليه فى أول الليل وهو يدعو الناس لصلاة العشاء • وكان هذه المـــرة يدعوهم لصلاة الفجر •

ضياع



اسـير فى الطريق كما هى العـادة الى أين ؟ لاأعرف. فقد كان يحلو لى دائما أن اسير وأن اسـير فقط . أتسـكع فى الطريق أقرأ أرقام السيارات وأتأمل لافتات المحال العامة وأتأمل سحن الناس وأشكالهم وخلقتهم. الطويل والقصير. الأبيض والأسود. المسبشر والمتشائم. والذى يسير وكأنه يركض. والذى يركض وكأنه يسير . وكذلك النساء . المنتفخة حتى لكأنها تحمل فى بطنها برميلا . والعجفاء حتى لكأنها احدى البقـرات السبع التى راها يوسف فى منامه . والتى عيونهـا بلون خضرة البرسيم . والتى عيونها كجرحين يقيان دما . والتى تملك اغلى الثياب ولكنها لا تعرف كيف ترتديها . والتى ترتدى الرخيص جدا من الثياب ولكنها على جسدها الجميل أشهى من الجسد نفسه . وتلك التى يعـرض جسـدها الثوب بدلا من أن يغطيـه حتى لكأن الثوب على جسدها المجهر الذى يريك الدقيق من الأشياء .

ومرت بى سيارة فتأملتها طويلا . ومرت بى سـيارة فقرأت رقمها سريعا . ومر بى متجر جميل فوقفت أتطلع الى فترينته . واقرأ لافتته . واتمعن فى الرسوم الجميلة التى رسم بها الخطاط الأحرف التى يتكون منها الاسم . وكأننى سرحت أو ذهبت الى ما هو أبعد من نفسى . لأننى افقت فجأة على يد فوق كتفى وما أن

رايته حتى وجدته صديقا عزيزا تربطنى به صلة ود وحب واعزاز كنت لا أراه الا نادرا • فقد كانت هذه عادتنا • اما ان نلتقى دائما وفى الصباح وفى المساء واما بالحول ينقضى فلا أراه أو يرانى وما أن استدرت اليه وهممت أن أصافحه حتى قال على الفور وهو يضحك :

– لعلك كالعادة تقرأ لافتات المطاعم لتدخل يوما أفخرها • ويوما أحقرها ؟

فقلت له وأنا أضحك فرحا بلقائه وأقرر حقيقة :

– تناولت أول أمس وجبة غداء بجنيهين • وتناولت امس وجبة غداء بأربعة قروش •

فقال سريعا وهو يسير ويدفعنى معه الى السير :

– هيا بنا الى هذا المطعم العظيم •

ووافقته على الفور ولكنى فجأة ترددت • ووقفت وقلت له :

– اسمع •• تريث •• وفكر بعقلك ان كل الذى معى عشرة قروش • فكيف سننفقها أو نقتسمها مع ضرورة أن ندخر منها شيئا للزمن •

فقال سريعا :

– شىء عظيم أنها مقسمة أصلا •

فقلت له فى غيظ :

– كيف ؟

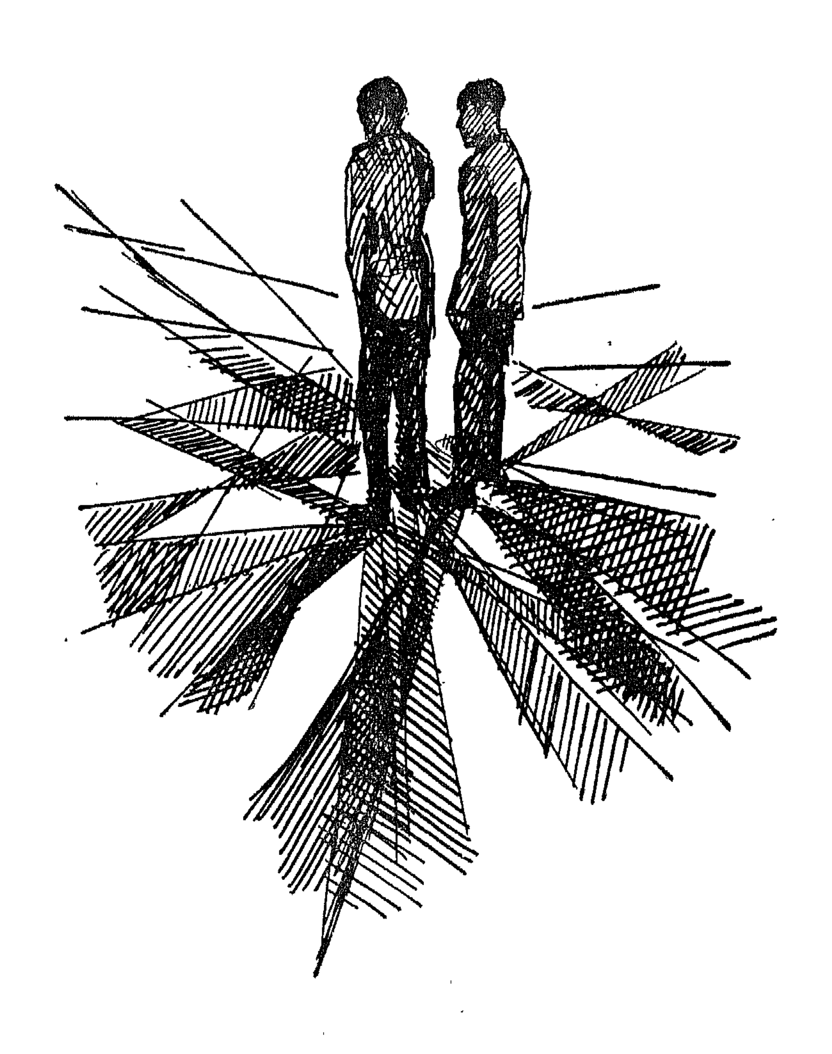
فقال فى هدوء وثقة :

– اطمئن • انك تعلم أننى خريج تجارة •

ثم وضع يديه فى جيبى البنطلون • وقطب ما بين حاجبيه ونظر الى أعلى فى تفكير حتى لكأنه يفكر فى الباب الأول أو الثانى لميزانية دولة وقال :

– رأس المال عشرة قروش • أى أن المدخرات الفعلية • والموجودة فعلا فى الايرادات بالغ قدرها عشرة قروش •

ثم أخرج علبة سجاير كليوباترا لمحت الثمن عليها ٢٣ قرشا وأشعل واحدة هى كل ما بقى فى العلبة لأنه قذف بالعلبة فارغة فوق الطوار •



ثم استطرد :

ـ والآن نريد بهذا المبلغ المدخر أن نبعث الحياة فى مضيعين• أى فى معدتين • أى فى بطنين • فكيف نعد الميزانية ؟ انها معـدة من تلقاء نفسها حتى بما فى ذلك المصروفات غير المنظورة • و ••

وأراد أن يستمر فى هذا الهذيان فقلت فى منتهى الغيظ لأننى ايقنت تماما أننى فقدت العشرة قروش فعلاً :

ـ خلصنى •• ماذا تريد أن تقول • وماذا تريد أنت ؟

فقال وكأنه يتحدث الى وزير من وزراء المال :

ـ الذى أريده انا • أن تدعونى على الغـداء • والذى أريد قوله أن العشرة قروش مقسمة كالآتى : أربعة قروش لك • وأربعة قروش لى • وقرش للبقشيش طبعا طبعا • أما القرش العاشر فسوف يقسم مناصفة بيننا وهذا ما تسميه أنت بالمدخر للزمن • ونسميه نحن فى لغة الاقتصاد بالاحتياطى فى الميزانية •

وكنا قد قطعنا شارع قصر النيل واخترقنا ميدان العتبة وبلغنا شارع محمد على • وعرجنا يمينا بعض الشىء فطالعنا مطعم فول الجمهورية وشاهدنا القدور النحاسية الصفراء الجميلة الطلعـة الحلوة المنظر ولاسيما القدر الكبير المنتفخ البطن جدا والضيق العنق جدا • هذا العنق الجميل الذى يتصاعد منـه بخار كأنه الدخان الأبيض كأن رائحته أحدث ما أنتجت باريس من عطور • ولولا الزحمة التى تشبه زحمة الحشر حول هذا القدر • من هو طفل ومن هو صبى • ومن هوبجلباب ومن هوببنطلون وقميص ومن هو الشيخ المعمم والكل كالكلاب النابحـة يمدون الأذرع ويمدون الحناجر أيضا يطلبون الطعام • لولا هذه الزحمة لكنت فى كل مرة أذهب فيهاالى مطعم فول الجمهورية • اقف بالساعات أستمتع بهذه الرائحة الجميلة •

ودخل هو أمامى شامخا مرفوع الرأس • يضع يديه فى جيبى البنطلون فى عظمة وكبرياء • ودخلت أنا خلفه منكس الرأس فقد تأكدت تماما عنددخولى أن العشرة قروش قد ضاعت فعلاوضاعت عن آخرها • وكان المطعم من الداخل فسيحا بعض الشىء ومظلما أيضا بعض الشىء وفى القليل النادر جـدا أن تراه مزدحما • والجلوس فيه والى بعض موائده يبعث حقيقة علىالهدوء والراحة

النفسية حتى أننى فى كثير من الأحيان كنت أطيل الجلوس فيه •

وما أن جلسنا حتى أقبل علينا سيد وهو العامل الوحيد فى المطعم • وهو صبى فى الخامسة عشرة من عمره • وهو سمح الطلعة يضحك وجهه دائما وكان دائما أيضا نظيف الملابس مما يجعل العين ترتاح الى رؤيته • وحيــانى بالذات تحية حارة • لأنى كما يقول سيد أحسن زبون • وكأن هذا أغضب صاحبى لأنه قال له وكأنه ينهره :

ـ استمع لى أنا • واصغ الى ما أطلبه أنا •

ثم راح يطلب منه العديد من الاصناف • حتى اسقط في يدى فقلت على الفور هامسا :

ـ لا تنس أنها عشرة قروش !

فأشاح بيده في وجهى واستمر يخاطب سيد • ولكن بعد أن قال يخاطبنى دون أن ينظر الى :

ـ قلت لك اننى رجل اقتصاد •

ثم وجه حديثه ثانية لسيد وطلب أصنافا أخرى • ولما هم سيد أن ينصرف وهو يهز رأسه• اسرعت وامسكت بطرف ثوبه أستوقفه وأنا أقول :

ـ وأيضا لاتنس بعد أن تحضر هذه الطلبات جميعا أن تحاسب الذى طلبها •

فقال سيد لعنه الله وهو يضحك :

ـ عيب يابيه تبقى حضرتك عازم واحد ويدفع هو ؟

ثم عقب وهو ينصرف سريعا ومازال يضحك :

ـ خلوا عنكم انتو الاثنين والحساب على •

ولما انصرف ســيد اردت أن اطمئن وأن أقول له شيئا ولكنــه قاطعنى قائلا :

قلت لك مرارا أنت لا تفهم فى الاقتصاد • لقــد قرأت سريعا وأنا أدخل قائمة الأسعار• فأعددت الميزانية فورا على هدىالأرقام كالآتى : فبدلا من اثنين طعمية واثنين فول • واثنين ســلاطة • والسلاطة ليست بالمجان • نوفر واحد طعمية ويقسم الآخر بيننا ونوفر واحد سلاطة ويقسم الآخر علينا أيضا • ومن هذا الوفر

طلبت شوربة العدس • وبهذا يكون قد تغدينا اكثر وتناولنا أصنافا اكثر ووفرنا من الميزانية نصف القرش لان مجموع المنصرف هو سبعة قروش ونصف قرش فقط •

وما أن وضح ذلك حتى امنت بانه رجل اقتصاد فعلا وأسعدنى هذا وشعرت بفرحة غامرة حتى أننى من شدة الفرحة كدت أشد على يده مهنئا ورفعت يدى فعلا • ولكنى سرعان ما رددتها فى خجل لا حد له واحسست على الفور بما يشبه العرق يكاد يتصبب منى وذلك عندما رايت مصادفة فتاة تجلس على مائدة فى ركن المطعم تستمع الى حديثنا وتنظر الينا وتبتسم ولعل الذى اخجلنى كثيرا هو ابتسامتها التى كان فيها اكثر من معنى هل هى سخرية هل هى اشفاق ؟ هل هى تقدير ؟ هل هى تحقير ؟ ولا أدرى هل هى كانت موجودة من قبل ولم نرها عند دخولنا وسمعت حديثنا من أوله • أم هى دخلت ونحن منهمكان فى اعداد الميزانية وفى حديثنا مع سيد • ان كل الذى حدث اننى لمحتها وعرفت انها كانت تصغى الينـــا باهتمام وكانت ايضا تبتســـم • ولاحظ هو على ما وقعت فيه من خجل وارتباك • ولما سألنى فى دهشة قلت له على الفور فى غيظ شديد :

ـ كسفتنا ياشيخ الله يكسفك •

ولما همست له أن فتاة خلفنا تصغى الى حديثنا وتبتسم • التفت هو اليها وتعمقها سريعا • دون أن يجعلها تفطن الى أنه قد نظر اليها • ولما فعل ذلك التفت الى وقال وهو يضحك :

ـ أؤكد لك أنها احترمتنا •

فقلت له فى حنق :

ـ كيف يا حضرة الاقتصادى الكبير ؟

فقال وثغره محشو بالطعام :

ـ لأننا من علية القوم ونؤم هذه المطاعم الشعبية •

فازداد حنقى وقلت :

ـ كيف نكون من علية القوم وليس معنا سوى عشرة قروش ؟

فهز كتفيه وقال :

ـ كيف لا يكون معك سوى عشرة قروش • وأنت ترتدى كرافتة جاكفات ثمنها تسعة جنيهات ؟

ثم ابتلع ما فى فمه دفعة واحدة وأكمل :

ـ هذا هو الاحترام يا صديقى •

ولما لم أجد فائدة من الحديث مع هذا المجنون صمت فقال هو :

ـ قلت لى أنك أول أمس تناولت وجبة غداء واحدة بجنيهين •

ـ هذا جنون أعترف به •

وكأنه لم يسمع لأنه استطرد :

ـ وأنك الآن تتناول القاتلات الثلاث الفول والطعمية والعدس• وهذا يؤكد لها تماما اذا كانت تصغى حقا • انك فعلا من علية القوم • وأنك أيضا من المحترمين • لأنك تريد أحيانا أن تهبط الى صميم الشعب •

وأردت أن أسبه • ولكننى قلت :

ـ اننى أهبط لضيق ذات اليد •

فتناول أصبعا جميلا من أصابع غانية كما يسميه وهو قرن حار من الفلفل وازدرده دفعة واحدة وقال :

ـ أنا لا تهمنى الاسباب التى دعتك الى الهبوط • وانما يهمنى أنك هبطت فعلا •

وكان سيد قد جاء ببقية الأطباق العديدة التى طلبناها ووضعها أمامنا وانصرف ليأتى بغيرها أيضا • وحانت منى التفاتة اخرى اليها فأدهشنى أن نظرتها لنا وكانت مازالت تنظر ، فيها فعلا الكثير من الاحترام•وكنت قد نظرت اليها أكثر من مرة حتىكدت اتعمقها • فلفت نظرى فيها أشياء كثيرة أهمها أنها تشدك اليها مهما حاولت أنت أن تبتعد • وأنها تجعلك تفكر فيها منذ أن يقع نظرك عليها • لا كامرأة جميلة فقط • ولكن ككباب مغلق خلفه الكثير من التحف • أو كخطاب مقفل يحتوى على كثير من الاسرار • وكان جمالهـــا أيضا كذلك فيه سر كبير لأنه غير واضح للعين المجردة • كان فى مجموعه أشبه بمصباح جميل للغاية ولكنه منطفىء • تقف أمامه وتتأمله وتعجب به • حتى لكأنك من كثرة تطلعك اليه واعجابك به تكاد تتخيله وهو مضىء وترى نوره وهو يبهر عينيك • وكان يبدو عليها أنها من ـ عيلة ـ وأنها ذات أصل عريق • كان كل شىء فيها يوحى بذلك حتى الثياب التى ترتديها كانت تدل على ذلك فقد كانت أنيقة جدا • وغالية الثمن جدا • ولكنها لاتملك غيرها لأن معالم البلى بدأت تتسلل اليها كما تتسلل بوادر الشيخوخة فى غفـلة من الأيام وزحمة من السنين الى الوجـه الجميل فتشوهه

والعيون المشرقة فتطفئها • فقد لمحت وهى تستدير لتتناول حقيبتها التى كانت بجوارها على مقعد آخر • لمحت فى البلوزة الحرير الغالية التى ترتديها من ناحية الكتف اليمنى ثقبا صغيرا لعلها لم تفطن اليه أو لعلها فطنت ولكنها لم تستطع أن تفعل شيئا • وواجهنى وجهها كله وهى تعيد الحقيبة الى مكانها فرأيت عينيها الواسعتين الجميلتين أشبه ما يكون جمالهما وسحرهما بجمال الوجه وسحره • ولكنهما أيضا كمصباح تريد له الأعاصير أن ينطفىء • انها سر من غير شك • ولكن ما عساه أن يكون سرها • ولما سألت صاحبى الذى كان مازال يأكل • قال وهو يلتهم قطعة الطعمية الثالثة من الأربع التى كنا أو كان المفروض أن نتقاسمها :

ـ لعلها من علية القوم مثلنا ويعز عليها أن تهبط •

ـ ولكن ما هذه الأسرار الكثيرة الغامضة التى تطالعك كلما نظرت اليها •

وقال وهو يلتهم القطعة الرابعة التى فى الطبق ويقضى على ما فيه :

ـ سنكون مثلها يوما •

ـ لم أفهم •

ـ انها يعز عليها أن تهبط • أما نحن فسواء علينا أن نكون ق القمة أم تحت السفح • سواء أن نتناول وجبة غداء فى ←يلتون بجنيهين • أو وجبة غداء فى مطعم فول الجمهورية ←بعة قروش •

وضايقنى منه هذا الأسلوب الساخر دائما • وأردت أن أقول له ←يئا ولكنه فجأة استدعى باهتمام سيد حتى لما لم يستطع أن ←ادى عليه لأن ثغره كان محشوا استدعاه بالاشارة • فأسقط فى ←ى واضطربت حتى كاد يشحب لونى • لأننى خشيت أن يطلب ←عاما آخر • وكانت هذه هى عادته يأكل أولا ثم بعد ذلك يفكر ← الحساب • وكثيرا ما أوقعنى معه فى مثل هذا الحرج • وقبل أقول له شيئا كان سيد قد حضر وأحنى رأسه وابتسم كعادته • ←ل له على الفور يسأله فى همس شديد •

ـ هل هذه السيدة الجالسة خلفنا تناولت طعامها ؟

فأحنى سيد رأسه ثانية وابتسم وقال :

ـ من زمان •

ـ ولماذا هى جالسة اذن ؟

فتلاشت الابتسامة من ثغر سيد هذه المرة وقال :

ـ هذه هى عادتها • أحيانا تظل جالسة هكذا الى أن تتناول طعام العشاء •

ـ وتدفعه عندما تنصرف •

ـ أربعة قروش كل يوم ••

ـ فوضع يده فى جيبه وهو يقول لسيد :

ـ خذ هذه القروش الخمسة ولاتخبرها أننا دفعنا لها الحساب الا بعد أن ننصرف نحن •

وما أن رأيت القروش الخمسة فى يده تتلألأ كأنها النور •• حتى قلت له مشدوها •

ـ اذن أنت معك خمسة قروش وتخفيها عنى •

وانصرف سيد ولم يجب هو ولما أعدت عليـــــه السؤال غير الحديث وسألنى :

ـ ماذا ستفعل غدا ؟

فقلت :

ـ تقصد ماذا سنفعل غدا ؟

ـ أنا أسألك عن نفسك •

ـ أنا مرتبط بك • أنت تعرف أنه ليس معى نقود •

فقطب فجأة واكفهر وجهه وهو يتحسس جيوبه باهتمام ويقول :

ـ تصور بعد هذه الوجبة الشهية ليس معى سجاير !

وكدت أن أصفعه من الغيظ أو أسبه أو أقول له شيئا ولكنى قبل أن أفعل رأيتها تنهض وتتجه الينا وتقول له وشىء من العطف فى عينيها :

ـ خذ هذه العلبة • حقيقة الذى بها لا يزيد على سيجارتين أو ثلاث •• ولكنها كل ما معى • كل ما أملك ••

فتصببت عرقا على الفور • وخجل هو أيضا وقال فى ظرف :

ـ شكرا اننا نتندر •

وقالت وشىء من الصرامة فى قولها :

ـ ان لم تأخذها فسوف لا أقبل أن تدفع لى ثمن الغداء •

فتناول من يدها الممتدة اليه العلبة سريعا وأراد أن يشـــكرها وأن يقول لها شيئا • ولكنها كانت قد عادت الى مائدتها ولم تجلس وانماتناولت حقيبتها واخرجت منهانظارة سوداء كبيرة وانصرفت دون أن تلتفت الينا • ولاحظت وهى عنـــد الباب تضع النظارة السوداء الكبيرة على عينيها • أن بزجاج النظارة الأيمن شرخا مستطيلا شوه كل شيء •• المنظر الجميل•• والوجه الفاتن والعيون الواسعة • كما لمحت مرة أخرى الثقب الصغير الذى فوق المكتف فزادنى هذا ايمانا بمأساتها • ورغبة صادقة فى معرفة سرها • وشعرت بضيق لاحد له لأنهاانصرفت • فاستدعيت سيد وقلت له :

ـ لماذا انصرفت ؟

فقال فى بساطة متناهية :

ـ ستعود ثانية • وتستطيع أن تراها دائما • لأن ما من مكان تذهب اليه الا ووجدتها فيه •

وكأنه لاحظ على وجهى الدهشة لهذا القول • فقال مستطردا وفى نفس البساطة المتناهية :

ـ تصور أننى أمس بعد أن شطبنا ذهبت عند مخالى لأملأ القنينة للحاج فوجدتها جالسة هناك •

فقلت فى دهشة :

ـ من هو الحاج ؟

فأشار بأصبعه الى صاحب المطعم الذى كان يتصبب عرقا وهو منهمك فى اعـداد الساندوتشـات للكلاب النـابحة حوله والاذرع العديدة الممتدة اليه ••

فسألته ؟

ـ ومن هو مخالى ؟

فأشار بنفس الاصبع الى حانوت مقفل أمام المطعم مباشرة وقال :

ـ صاحب هذه الخمارة ••

ـ ولكنها مغلقة ••

فقال وهو ينصرف هذه المرة :

ـ مخالى لا يفتح خمارته الا بعد الثامنة مساء •

ودفعنا الحساب ، وكان كما أعد هو الميزانية بالحرف ، سبعة قروش ثمن الغداء •• وخرجنا يسير هو أمامى شامخا مرفوع الرأس ولما سألته : ألم نتفق على اقتسام الباقى ؟ ذكرنى بأنه دفع خمسة قروش ثمن الغداء •• وخرجنا يسير هو أمامى شامخا مرفوع الرأس كأنه القائد المظفر يستعرض جيشه المنتصر • وفى الطريق توقف عن السير وتحسس جيوبه وأخرج علبة السجاير التى أعطتها له الفتاة ونظر اليها فى كبرياء وقال :

ـ ليس بها غير سيجارة واحدة ، وهذا لا يكفى ••

فكدت أسقط فى الطريق من الضحك ، وتأكدت لحظتها أن شر البلية مايضحك فعلا •• وسرنا بعض خطوات فتوقف عند بائع سجاير وطلب علبة كليوباترا فمددت يدى سريعا كى أمنعه •• أو أجعله مثلا يستبدل الكليوباترا بعلبة بلمونت صغيرة ونقتسم الـ ١٢ قرشا الباقية •• ولكنه قبل أن أفعل أو أنطق أخرج من جيبه ورقة من فئة الخمسة جنيهات قدمها للبائع وهو يلتفت لى ويقول وكان لايكذب :

ـ انها كل ما أملك •• وقبل أن نفترق سنقتسمها بالتساوى ••

ومن ثم واصلنا السير •• ولكن الى أين ؟ كنا لانعرف ، كما هى العادة •• رحنا نجوب هذا الشارع أو ذاك •• ونقطع هذا الطريق أو ذاك •• ننظر الى المارة •• ونقرأ أرقام السيارات •• ونقف أمام الفترينات •• الى أن بلغنا جروبى ، فجلسنا لنستريح وطلبت أنا فنجانا من القهوة •• وطلب هو فنجانا من الشاى •• وكدنا نختلف اختلافا كبيرا • وكاد الخلاف بيننا يحتدم الى حد كبير خشية أن يكون الشاى أغلى ثمنا من القهوة لاننا اتفقنا على أن نقتسم مامعنا بالتساوى ، فلابد أن تكون نفقاتنا أيضا بالتساوى •• ولكن حسم هذا الخلاف الجرسون عندما جاء بالطلبات وقرأنا الورقة وعرفنا أن لا فرق بين الاثنين •• هذا بالعشرة فى المائة ثمنه تسعة قروش•• وهذا أيضا بالعشرة فى المائة ثمنه تسعة قروش •• كل هذا وهو يدون فى ورقة معه ما ننفق •• ولفت نظرى عندما نظرت للورقة أنه دون ما نملكه أصلا • العشرة قروش التى جانبها الايمن مبلغ ٥١٥ قرشا • ولما سألته قال فى كبرياء وهو ينظر الى شذرا وكأنه يرمينى بالغباء :

ـ ألم أقل لك اننى رجل اقتصاد ••

ثم نظر الى الورقة وقال مستطردا :

ـ هذا المبلغ هو رأس المال •• القروش العشرة التى كانت معك••

والخمسة قروش التى انفقناها ثمنا لغداء الفتـاة •• ثم الخمسـة جنيهات التى اشترينا منها السجاير ••

وتذكرت السجاير •• فقلت على الفور :

ـ ولكنى لا أشرب الدخان •• فكيف تقاسمنى ثمنه ؟

واغتاظ هو هــذه المرة ، وقال فى غضب وهو يقدم لى ورقة الحساب :

ـ انظر أيها الغبى ••

ولما نظرت الى الورقة وجدته كتب فى طرفها الآخر هذا الرقم ١١ قرشا ••

ثم قال وهو يسحب من أمامي الورقة في عنف :

ـ هذا زيادة لك •• أي تحتسب من مدخراتك أنت عند القسمة •

ومرت لحظات تحدثنا فيها طويلا •• تحدثنا عن فئة من ذوى الطرابيش الذين يجلسون فى جروبى •• ونظرنا الى آثار من التراث ممثلة فى فئة من النساء عاصرن معركة عرابى •• أو شاركن فى حفر القناة •• كما تأملنا العديد من الافخاذ كشف عنها الميني جيب •• وتطلعنا الى كثير من الرؤوس التى تشبه الخنافس •• ومن ثم رحنا ننظر الى المكان الذى ازدحم ازدحاما شديدا بهذه الاصناف المتباينة التى لاتربطها صلة •• حتى كادت تتعذر الرؤية من كثرة الذى يرى • وبينا نحن كذلك حانت مني التفاتة فاذا بى أراها جالسة على مائدة تكاد تكون قبالتنا •• وتجلس نفس الجلسة •• ذراعها فوق المائدة •• وخدها فوق يدها •• والسيجارة بين شفتيها •• وفنجان القهوة أمامها •• وعيونها تنظر الينا نفس النظرات •• فقلت لصاحبى على الفور :

ـ كنت أظن أننا •• انا وأنت المجانين فقط ••

ـ لماذا ؟

ـ لاننا نتناول وجبة الغداء بأربعة قروش ونشرب فنجانا من القهوة بتسعة قروش ••

فقال ساخرا كعادته :

ـ هل رأيت مجنونا آخر ؟

ولما رآها فكر قليلا وقال :

ـ لعلها مجنونة بنا ••

فقلت على الفور وكأننى أكرم رجل فى العالم :

ــ ماذا تريدين ؟

فحاولت أن تبتسم وهى تنظر الى نظرة سريعة جدا ، وقصيرة أيضا جدا ·· وكأنها تعرفت على كل شىء من خلال هذه النظرة القصيرة لأنها قالت :

ــ ماذا غير خبز وجبن !

فاستدرت بها سريعا وسرت بها خطوات · حتى بلغنا حانوت عم خاطر البقال وهو مشهور فى الحارة وأكثر شهرته ترجع الى أنه يسهر طوال الليل · واشتريت منه بعض الخبز والحلاوة الطحينية والزيتون الأسود وقطعة كبيرة من الجبن القريش [illegible] اشتهر عم خاطر ببيعها ·· وانصرفنا غير أننا لم نكد نسير [illegible] حتى توقفت هى عن السير وفتحت حقيبتهـــا · وراحت تبحث فى قلبها عن شىء · وتدير أصابعها بين محتوياتها الكثيرة · المنديل الصغير الممزق · واصبع الأحمر الصغير وعديد من الســجاير المبعثرة فى قلبها · وبعد حين أخرجت ورقة مالية من فئة الخمسين قرشا وقدمتها لى وهى تقول :

ــ أريد زجاجة من الخمر وعلبة سجاير بلمونت صغيرة ·

وكأن الطلب كان مفاجأة لى لأننى قلت :

ــ أى نوع من الخمر تريدين ؟

فابتسمت وهى تقول :

ــ لا أعرف ·· اننى فقط أريد أن أسكر والذى يريد أن يسكر لا يعرف نوع الخمر · أما الذى يسكر فهو الذى يعرف أنواعها · وفرق كبير بين الاثنين ·

ــ بين من ومن ؟

ــ الذى يسكر · والذى يريد أن يسكر ··

والحقيقة لم أعرف هذا الفرق · ولذلك أعدت اليها الخمسين قرشا ·· ورجعنا ثانية فى الليل نقطع طريقا طويلا ·· حتى بلغنا ــ خمارة ملحم ــ وهى مشهورة فى الفجالة شهرة عم خاطر تماما ·· لانهــا لا تغلق أبوابها أبدا هى الاخرى · وتركتها عند الباب ودخلت واخترقت ذلك الممر الصغير فقابلنى عند مدخل الخمارة الواســعة

التى تشبه الدهليز عم سليمان العجوز ـ كما كنا نسميه ـ وهو الخادم والجرسون والخمار وبائع السميط أيضا ٠٠ اى أنه هو كل شيء فى خمارة ملحم ٠٠ وطلبت منه زجاجة كونياك ٠٠ ففتح الرجل عينيه الضيقتين وراح ينظر حواليه وعند قدميه ٠٠ وأيضا بين اقدام السكارى الذين يترنحون فوق مقاعدهم الى أن لمح زجاجة فارغة ملقاة فوق الارض ٠٠ فتناولها وذهب بها الى حنفية وضع تحتها فى يمين الدهليز نصف برميل يتساقط فى قلبه الماء ٠٠ وغسل الزجاجة جيدا ٠٠ ومن ثم ذهب بها الى برميل كبير كانت الحنفية فى قلبه هذه المرة ٠٠ ومن ثم ملأ الزجاجة وأعطاها لى فأعطيته خمسة عشر قرشا ثمن الزجاجة ونصف القرش له وخرجت ، وعند الباب وجدتها كما تركتها فى الظلام حاملة الحقيبة وقراطيس الطعام الذى اشتريناه٠٠ وما أن رأت الزجاجة فى يدى حتى تهلل وجهها وانفرجت أساريرها عن اشراقة حلوة كاشراقة الصبح تماما ٠٠ ومن ثم انصرفنا معا الى أن بلغنا ـ البيت ـ ومددت يدى وفتحت بابه الخارجى الذى يشبه باب الخوخة ودخلنا ٠٠ ولما احتوانا ظلام الدهليز ٠٠ اشعلت عودا من الثقاب ٠٠ فلاحت لنا الابواب الاربعة التى على جانبيه منتصبة كأنها المردة فى الليل٠٠ فلم التفت اليها ٠٠ وانما رحت أهبط درج السلم الذى يوصل الى البئر ٠٠ وراحت هى تهبط خلفى دون أن تنبس أو تقول شيئا ، والغريب أننى عندما فتحت الباب ودخلت ـ الغرفة ـ وأشعلت المصباح الكهربائى ، وهو الشيء الوحيد فى الغرفة الذى يثبت بالدليل المادى انها غرفة فعلا ٠٠ وظهرت على ضوئه الخافت محتوياتها ، ان كانت لها محتويات ، لم تندهش ولم تستغرب ٠٠ ولم يلفت نظرها شيء غير عادى ٠٠ حتى لكأنها تعرف هذه الغرفة ، وأنها قد دخلتها عشرات المرات ٠٠ أو أنها هى صاحبة هذه الغرفة ٠٠ وأنا الضيف العابر الذى يدخلها لاول مرة ٠٠ وراحت فى هدوء تضع ما معها فوق الترابيزة وترتب ملاءة الكنبة وتقرب منها الترابيزة وترص عليها قراطيس الطعام ، وتملأ القلة ٠٠ وظلت كذلك حتى رتبت كل شيء ، وأعدت كل شيء ٠٠ حتى الحادث الذى كاد يوقعنا فى حيرة ٠٠ تخلصت منه سريعا ٠٠ وهو عدم وجود كوب نشرب فيها الخمر٠٠ اذ جاءت بغطاء القلة وأعدتمنه كأسا ، كما لمحت فنجان قهوة قديما ملقى تحت الكنبة فتناولته ونظفته وجعلت منه كأسا أخرى ٠٠ ومن ثم جلسنا كانسانين سعيدين كل السعادة نأكل ونشرب ٠٠ ونتحدث ونضحك ونلعب ٠٠ وظللنا كذلك تغمرنا هذه السعادة الى أن فرغ الطعام ٠٠ وفرغت أيضا الزجاجة التى شربنا كل ما كان فيها حتى ثقل راسى ٠٠ واحسست برغبة

شديدة فى النوم ٠٠ ولكنى لم افعل ، بل ظللت فى مكانى اغالب النوم ما استطعت ٠٠ ولاحظت هى ذلك ، وكأنها عرفت بذكائها السبب فى مغالبتى هذه الشديدة للنوم ٠٠ لانها قامت هى ونزعت اكثر ثيابها امامى٠٠ ورأيت فيما رأيت البلوزة المثقوبة من عند الكتف والجورب الذى به عدة تمزقات ٠٠ كما رأيت بعض الثياب الاخرى الداخلية وكيف أنها كانت اكثر قدما وتمزقا وبلى من الثياب الخارجية ٠٠

عند ذلك لم أتردد فى ان أنهض أنا أيضا على الفور ٠٠ وأنزع ثيابى ٠٠ الحذاء المثقوب والجورب الذى تآكل نصفه ٠٠ حتى ظللت بالفانلة التى شبهتها هى وهى تضحك وتغرق فى الضحك بالحمامة الوديعة التى مزقها الرصاص ٠٠ وتدغدت نظراتى فلم اقو على فتح عينى ٠٠ التى كنت اذا فتحتها بجهد لا أرى أمامى سوى خيالات لنهد يومض ٠٠ أو شعاع لصدر يلتمع ، أو خيالات لردف يهتز ٠٠ أو بريق للحظ ٠٠ أو اشراقة لجيد ، أو انتفاضة لجسد ٠٠ حتى كل هذا لم أدرك منه شيئا على وجه التحديد ٠ او أحدد مصدر الومض الذى ينبعث من هنا أو هناك ٠ أما الذى أؤكده لأننى عرفته جيدا ولم أكن أعرفه من قبل ٠ هو أن جسد امرأة جميلة بجانبك أكثر دفئا من اغطية العالم مجتمعة ٠ ولعل هذا الدفء الذى لم يتح لى طوال السنوات التى قطنت فيها فى هذه البئر ٠ هو الذى جعلنى من كثرة الامتاع به ٠٠ أسبح فى نوع عميق لم أستيقظ منه الا مع ضحى اليوم الثانى ٠

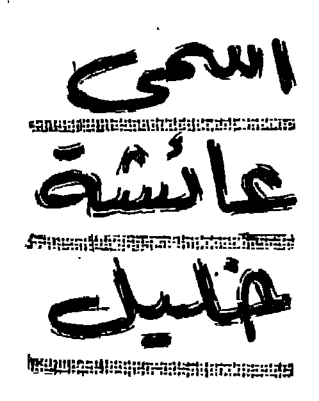
غير أن هذا الحلم الجميل الذى عشته٠ تبدد فجأة عندما فتحت عينى فلم أجد فى قلب الغرفة سوى شخص فقط كماكنت أراه دائما كل يوم ٠٠ ولما فتحت عينى سريعا ٠ وفتحتها جيدا ٠ ورحت فيما يشبه الذعر أتلفت حولى فلم أرها ٠ وتلفت مرة ثانية وثالثة ورابعة ٠ فلم أجدها أيضا ٠٠ وكل الذى رأيته فيما رأيت حافظة نقودى ملقاة فوق الترابيزة ٠ فاصفر وجهى وتدهورت أنفاسى ٠ وتعالت دقات قلبى وراحت تدق أشبه ببندول الساعة المختل فقد كان بها كل ما أملك فى حياتى وهو سبعة وستون قرشا ٠٠ لذلك قفزت من فوق الكنبة ومددت يدى فى ذعر لأتناولها ٠ ولكنى قبل أن أفعل رأيت بجانبها ورقة من فئة الجنيه وايضا تسعة قروش بجوارها ٠ فمددت يدى فى ذهول أتحسس هذا الذى رأيت فلمست يدى بجانب الورقة المالية ورقة أخرى قرأت فيها هذه الكلمات :

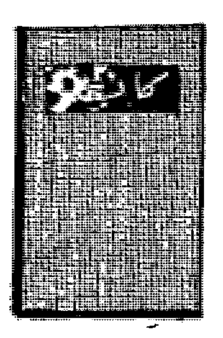
« تناولت حافظة نقودك لأسرق شيئا ٠ أو بمعنى اصح لأستعين بشىء منها ولو على أيام من أيامى الطوال التى لا أدرى متى ستقصر

ولا متى ستنتهى • ولكنى وجدت أن ما معك من نقود يقل بكثير عما معى ومادامت أيامنـا واحـدة فبديهى أن نقودنا أيضـا واحدة • ولذلك خلطت ما معك بما معى •• ثم اقتسمته مناصــفة • فكان نصيب كل منا هو هذا الجنيه والتسعة قروش التى تركتها لك كما تركت لك ايضا ثلاث سجاير هى نصف الست التى بقيت معى •• والى اللقاء » • •

والى الآن ومنذ ذلك التاريخ الطويل التقيت بعديد من الوجوه وتعرفت عليها أو ظننت اننى أعرفها • أما الوجــه الذى عرفته حقيقة فهــو الذى لم التق به الى الآن • واغلب الظن اننى لن التقى به أبدا •







اسمي فيما مضى عائشة خليل • وقالوا اننى سميت باسم أمى • وقال آخرون ان هذا الاسم أطلقته على المرأة التى تبنتنى فى القرية بعد أن ماتت أمى • ولكن كل هذا تغير فيما بعد، كما تغيرت حياتى كلها بعد ذلك التاريخ فقد حدث انه عندما جاءت أيام الحصاد وكنا فى القرية ننتظر أيامها كما ننتظر العيد • ونتشوف نحن البنات الضائعات فى القرى الى خروج أفواج الترحيل فى المواسم تسعى الى التفاتيش والمزارع ونمكث بالشهرين والثلاثة نضرب فى الحقول والوديان ثم نعود وجيوبنا محملة بالقروش والأريلة الفضية التى لانراها الا فى هذه المواسم فنطعم ونكسى ونشترى الحلوى • حدث أن رحلت فى ذلك العام مع أنفار الترحيلة الى بلاد وتفاتيش كثيرة ثم استقر بنا المقام فى تفتيش وقف الخصوص •

حقيقة كانت الطريق طويلة والرحلة شاقة كلفتنا الكثير من الصعاب ، فقد مكثنا ستة أيام وست ليال نسير على أقدامنا فى حر الهاجرة المميت ، وكنا أكثر من مائتى فتاة ومائة فتى ، ودائما كان عدد الفتيات فى الترحيل يزيد على عدد الفتيان ، لأنهن كما كنت أسمع أكثر جلدا على تحمل المتاعب ، وكانت الرحلة لطيفة تغلبنا على متاعبها كالعادة ، وكان المفروض علينا أن نتغلب على

المتاعب أيا كانت ، فكنا نضحك ونغني ونطرب ، واذا جاء الليل افترشنا أرض أى حقل يقابلنا ٠٠ مادام بجوار مصرف أو ترعة أو نبع يجرى فيه الماء ٠ وكنا ننام كالقطيع فتيانا وفتيات ونساء ورجالا ، وكهولا وعجائز ٠ وكان يحضن بعضنا البعض الآخر ويتلامس فيه من شدة الصقيع اذا كان الطقس باردا ٠ أونتعرى وننزع بعض ثيابنا ونحن نلهث كالنعاج فى قلب المراعى اذا كان الجو حارا دون أن يعكر صفونا معكر ٠ حقيقة كانت بعض الكباش تنتهز فرصة العتمة والتعب والاستغراق فى النوم ، وترفع قرونها فى الظلام ، ولكن يقظة النعاج كانت لها دائما بالمرصاد ٠ فما أن تزوم نعجة فى الليل حتى تزوم النعاج جميعا ويتعالى صوتها فيضطرب حبل القطيع كله كما لو كان قد سقط ذئب فى قلبه وعند ذلك تتراجع تلك الكباش سريعا وتنام فوق التراب وتظل كذلك مغمضة العين الى الصباح ٠ وقد انتهت الرحلة دون أن يحدث ما يعوقها اللهم الا بعض أحداث صغيرة حدثت ، ولكنا تغلبنا عليها أيضا ٠ وما من حادث كان يحدث الا تغلبنا عليه ٠ فمثلا حدث أن سرقت زوادة فهيمة أم على ، وفقد الجوال بما فيه وسرقة « زوادة » واحدة منا شيء ليس هناك أبشع منه ولا حتى الموت ، فهى اما أن تجوع طيلة الشهور الثلاثة أو ما يقاربها وهذا شيء لا يقدر عليه انسان ، واما أن تقطع الرحلة وترجع ومعنى ذلك أن تحرم من فرحة العيد الأكبر الذى كنا نقضى العام فى انتظاره ، لأن عيدنا فى القرية الذى كنا ننتظره هو عيد الترحيلة وليس عيد الفطر أو عيد الاضحى ، وهى ان لم تفعل هذا أو ذاك واقترضت من عم متولى ريس الأنفار لتشترى الرغيف من السوق لتأكل، فمعنى ذلك أنها ستنفق على طعامها كل يوم نصف الخمسة قروش وهى الأجر الذى كانت الواحدة منا تتقاضاه فى اليوم ٠ وبكت فهيمة بكاء مرا ورحنا جميعا ننظر فى حسرة الى عينيها المحمرتين وقطرات الدموع التى تتساقط منهما وكأنها نقاط من الدم دون أن نقدر على أن نصنع لها شيئا ٠ فقد كانت زوادة كل منا مقدرة بمقدار أيام الشهر لا تزيد أو تنقص عنها شيئا ٠ ومقدرة أيضا بمقدار آخر لا يزيد أو ينقص عن ساعات اليوم ، ومقسمة عليه برغيفين ونصف الرغيف ، وهذا النصف هو الذى تتكون منه وجبة الافطار ٠ فاذا ما نقص هذا المقدار ولو نصف الرغيف فسوف تحرم الواحدة منا من طعامها نصف اليوم تماما ٠ وفكرنا فى هذا كله وأجهدنا التفكير دون أن نقدر على أن نصنع لها شيئا ٠ ولكن الشقاء دائما اذا كان كبيرا كان الجلد على احتماله كبيرا أيضا ٠ واحتمالك للشيء معناه القدرة عليه ٠ هكذا علمتنا



الشقاء نفسه • ولذلك كانت فرحتنا كبيرة عندما تقدمت احدى الزميلات بعد أن رأت بؤس الفتاة وشقوة حالها • واقترحت علينا أن نشارك الفتـــاة جوعها وأن تشاركنا هي شـبعنا ، وسرعان ما صادف هذا الاقتراح هوى في نفوسنا جميعا فأعطتها كل واحدة منا رغيفا ، أما قطع الجبن ومخلل الكرنب واللفت وأعواد الجلاوين فقد أغدقناها عليها اغداقا • لان الغموس كان لا يهمنا بقدر ما كان يهمنا الشيء الذي نغمسه به • وبذلك رجعت اليها حياتهـا ورجع اليهاأيضا قلبها • بعد أن تضحم جوالها ، تضحمت معه الفرحة البالغة في قلبها وفي قلوبنا جميعـــا وكذلك لم نجعلها طيلة الرحلة تشعر بأنها تنقص عنا شيئا ، حتى أننا عندما مررنا على أحد الاسواق في طريقنا، واشتركت جماعة منا ودفعت كل واحدة منا نصف قرش واشترينا كحكة كبيرة من ـ العيش «الفرنجيلة» ـ وهو الذي يطلق عليه في البندر ـ الخبز الافرنجي ـ أشركناها معنا في الغموس منه ، وأقول الغموس منه • لأننا كنا لا نأكل هذا العيش اذا ظفرنا به وانما نأكل عيشـــنا حتى لا نحرم سريعا من لذة طعمه ، وانما كنا نقطعه قطعا صغيرة ونضعه في اناء كبير ، ونغمسه في الماء حتى يذوب ، ثم نغمس عيشنا فيه ونأكل • ومع أن هذه لذة كبيرة الا أنها مع الاسف كانت لا تتاح لنا الا نادرا •

وهكذا مر هذا الحادث ، حادث فقـــد زوادة فهيمة بسلام ، وتغلبنا عليه • غير أنه قبل أن نبلغ التفتيش بيومين ، حدث حادث آخر كان لا يقل بشاعة عن سابقه ، فقد حدث أن مرضت وردة ، واشتدت مضاعفات علتها فجأة ، ومع أنها كانت من بدء الرحلة ، بل ومن قبل أن تغادر القرية بأيام مصفرة الوجه شاحبة النظرات تنتابها من حين الى آخر رجفة تهز كيانهـا كله • الا أنهـا كانت تأمن في القدرة على العمل ، غير أن حرارتها ارتفعت فجـأة في الطريق ، وارتفعت الى حد مخيف ، وراحت تقيء من حين الى آخر وتنتابها من حين الى آخر أيضا اغماءة تفقدها وعيها الى حين ، وقد صنعنا لها أشياء كثيرة ، وضعنا على نافوخها الذي كان يحترق ـ لبخة ـ من أوراق الرجلة ، وأطعمناها عدة رؤوس من الثوم لتخفف حـــدة المغص الذي كاد يقطع أحشاءها ، كما كسرنا لها بصلة كبيرة على رأســـها وسكبنا ماءها الحار على منخاريها حتى شرقت به خياشيمها ، كمـــا تبرع لها عم متولي الريس ببرشامة ـ من عنده • ومع ذلك لم تخف حدة آلامها بل زادت الى حد مرعب حتى رحت وأنا بجـــوارها ممسكة بيديها الباردتين أبكي وأنتحب • فقد كانت وردة صديقة عزيزة تربطني

بها صلة رحم كما تربط الاخوة صلة الرحم • فقد ماتت امهـــا كما ماتت أمى • وتيتمت كما تيتمت • وعاشت هى فى القرية عالة على الغير كما عشت أنا • ولذلك كنت أحبها من قلبى وظللت احبها حتى طيلة السنة الماضية التى غابت فيها عن القرية ولا أدرى أين كانت ، وحتى فى تلك السنة كنت أيضا أحبها ، ونظرت اليها وهى مسجاة أمامى على الارض مغمضة العين وعاودنى البكاء ولكنها فتحت عينيها وأشارت الى بيدها المرتعشة أن أعاونها علىالنهوض حتى تدخـــل مزرعــة الذرة لتقضى أمــرا • وما أن فعلت وسرت بجوارها وهى مرتمية على صدرى حتى انطلقت منى صرخة فى الليل ولكنها مدت يدها سريعا وكتمت أنفاسى حتى لا يسمعنا احد• فقد رأيت سروالها ونصف جلبابها الأسفل يسبحان فى لجة من الدم • فقلت ذاهلة :

ـ أنت مجروحة ؟ !

فلم تجب وانما تمتمت وهى تســـقط من يدى على الأرض فى قلب الذرة بهذه الكلمات التى لم أفهم لها معنى حتى الآن :

ـ قالت لى خالتى زينب فى القرية أن عود الملوخية هو الذى ينهى المشكلة •

وظننتها تريد منى أن أجمع لها بعض أعوادالملوخية من الحقل، فأسرعت لأجىء لها بما تريد ، ولكنها أمسكت بذراعى وضغطت عليها فى عنف وهى تتلوى ، وفجـــأة انقلبت سحنتها وجحظت عيناها جحوظا مخيفا فى الليل حتى غدت أشبه بعينى قطة تموت وتكورت فى نفسها حتى غدت كالكرة تماما ثم فجأة انفردتصارخة وهى تغوص بيديها فى الطين ووجها كذلك فخفت خوفا شديدا وارتعدت أوصالى وأنا انتزع بكل قوتى وجهها المدفون فى الارض واخرج بأصابعى الطين الذى حشى به ثغرها ، ورحت فى ذهول شديد أسألها عما بها فراحت تقول كلاما يشبه الأنين تماما ولذلك لم أسمع منه شيئا، ولكنىعندما وضعت أذنى على شفتيها لأسألها ماذا تقول ، سمعتها تتمتم فى نبرات متقطعة بعض كلمات كثيرة •

كل الذى استوعبته أذناى منها قولها :

ـ قال لى انه سيتزوجنى •

فعرفت على الفور سر وجيعتها وقلت لها وأنا الطم خـــدىّ لسذاجتنا وقلة عقلنا نحن الفتيات الطيبات :

ـ الآن واحدا وعدك بالزواج وتخلى عنك تصنعين فى نفسك كل هذا !

فنظرت الى بعينيها الجاحظتين، وعلت ثغرها ابتسامة شاحبة، وصمتت ٠ وظلت صامتة ٠ وظلت أيضا الابتسامة الشاحبة فوق ثغرها الملوث بالطين ولم تقل شيئا ولم تات بأدنى حركة ٠ وكل الذىحدث أن ذراعها التى كانت علىكتفى سقطت فجأة علىالارض كما سقط رأسها أيضا من على فخذى واستقر على الارض ٠٠ ونظرت اليها فاذا بها كما هى تنظر الى جاحظة العينين وتبتسم لى تلك الابتسامة الشاحبة التى استقرت على شفتيها الملوثتين بالطين ، فخفت وارتعدت فرائصى ، وصرخت فى وجهها دون وعى :

ـ وردة ٠ تكلمى

فلم تجب ، فازداد جنونى وصرخت ثانية بأعلى صوتى وكأننى أستغيث :

ـ تكلمى ٠٠ أنا عائشة ٠٠ أنا خائفة منك ٠٠

لقد كانت هذه أول مرة فى حياتى أرى فيهاانسانا يموت، ولذلك ظللت اصرخ فى وجهها وأنا أهزها فى عنف دون أن تكلمنى

ولكنها أبدا لم تجب

ولقد أحدث موت وردة فى نفوسنا جميعا اضطرابا شديدا والاما لا حد لها ، ولم يكن الحزن على موتها بقدر ماكان الارتباك الذى أوقعتنا فيه الجثة اذ كيف نتصرف فيها ٠ وهل نحملها معنا أم نتركها فى العراء ٠ ولكن عم متولى تصرف تصرفا طيبا ، وضع الجثة تحت شجرة سنط كبيرة وغطاها ببعض أوراق الشجر ، ثم ذهب الى أقرب قرية مجاورة وأبلغ العمدة ، ولما عاد اختارنى أنا بالذات أو أنا التى فضلت أن أبقى بجوار الجثة مادامت الترحيلة ستواصل رحلتها حتى يجىء العمدة وأهل الخير ويدفنوها ، ولكنالذى حدث كان أكثر بشاعة من الموت نفسه، فقد حضر العمدة على الفور ومعه بعض الخفراء ، ووصلت فى اثرهم مباشرة سيارة سوداء كبيرة كريهة اللون ، وهبط منها رجل بدين عرفت أنه الطبيب ، وما أن اقترب من الجثة ورفع ذلك الغطاء الملوث بالدماء وهو قطعة من ثيابها القيت على وجهها حتى لا تظل ترعبنى تلك الابتسامة التى مازالت منطبعة على الشفاه الملوثة بالطين ، ورأى العينين البارزتين ، والزرقة التى تمشت فى الوجه والجسد كله ، حتى أعاد الغطاء ثانية ، وهو يتمتم بألفاظ لم

اسمعها لرجل كان بجانبه وما هى الا لحظات حتى القيت الجثة داخل تلك السيارة أما أنا فقد أمسك بى أحد الخفراء من يدى ، والقى بى القاء داخل ذلك الجب المظلم وهو قلب السيارة بجوار الجثة ، ثم انطلقت بنا السيارة ولكن الى أين لا أدرى • وكل الذى عرفته عندما فتح باب السيارة الخلفى ورأيت النور ، وجـدت نفسى فى فناء مبنى كبير عرفت بأنه مستشفى ورأيت بعض النسوة والاطفال والعجـائز يبكون ويولولون • وجاءت عـربة صغيرة بعجلتين يدفعها رجـل بسروال أبيض فضفاض ملوث بالدماء ، وأمسك بحلقة فى قلب السيارة وشدها اليه فاذا بالجثة منطرحة عارية على عربته الصغيرة ، ثم دفعها أمامه وهو يتحـدث الى بعض النسوة العجائز ويضحك وكأنه لا يدفع أمامه جثة الى أن دخل بها الى عنبر كبير فى مواجهة الفناء• أما أنا فقد عاد الخفير وأمسك بيدى وظل ممسكا بها كما لو كان يخشى أن أفلت منـه • ومكثنا كذلك حينا ، الى أن رأيت فجأة باب العنبر يفتح ، ويخرج منه نفس الرجل يدفع نفس العربة وعليها شىء لم أتبينه فى أول الامر لأنه كان مغطى بغطاء من المشمع الاسود • ولكنـه عندما اقترب منا ومر من أمامنا متجها الى بعيد رأيت بعض نقاط الدم تسيل وتتساقط من العربة على أرض الفنـاء • فصرخت وولولت منتحبة ولـكن الخفير أسرع ولطمنى على وجهى لطمة موجعـة فصمت على الفور • وظللت صامتة وظل هو ممسكا بيدى الى أن جاء رجل طويل فارع الطول يحشو جيب مريلته البيضاء بعدة أوراق ، وأمسك بيده ورقة ووضع فى أذنه قلمـا ، واقترب منى وقال :

ـ ماذا تبقى لك ؟

فارتبكت ولكنى نطقت على الفور وقلت :

ـ أختى ••

ولم اكن فى ذلك أعنى سوى حبى لهـا ، وصلة اليتم والبؤس التى ربطت بيننا ، وأخيرا هذا الشقاء الذى شاركتها فيه ، قلت ذلك • فنظر الى الرجل لحظة ثم قال :

ـ أبوك موجود ؟

ـ لا •

ـ وأمك ؟

ـ ماتت •

- من الذى يعولك ؟
- ربنـــا ٠

فارتسم شيء من الحزن على وجه الرجل وقال وهو ينظر فى الورقة التى فى يده :

- أسباب الوفاة ؟

ثم استطرد يقرأ :

- اجهاض أدى الى تهتـــك فى الرحم ونزيف حـــاد نتجت عنه الوفاة ٠

فلم أفهم شيئا مما قال ، ولذلك قلت :

- يعنى ايه ؟

فقال وهو يشيح بوجهه عنى وينصرف الى امرأة اخرى كانت تبكى :

- يعنى أختك كانت حبلى !

فشهقت ودارت بى الارض ، ولم أعـــد أسمع شيئا ولا حتى صوت الخفير وهو يترك يدى ويأذن لى بالانصراف ٠

ووجدت نفسى فى العراء اسير وحـــدى ، وظللت اسير وظلت الدموع تروح وتجيء فى عينى ، وعدة أشباح تتراقص امامى ، وكلمات تطرق أذنى من آن الى آخر ٠٠ وجـــه تمشت فيه زرقة مخيفة ، ثغر محشو بالطين ، أنين يصم الآذان ، صراخ لا يكاد يسمع ، جسد يتكور كما يتكور القنفد تماما ٠ ثم ينفرد صارخا كما ينطلق السهم فى الفضاء ٠٠ عود من الملوخية ينهى المشكلة ٠٠ قال لى انه سيتزوجنى ٠٠ عينان بارزتان جاحظتان ٠٠ شفتان ملوثتان بالطين وتنشقان عن فجـوة مظلمة مخيفة كئيبة وتقعـد عليهما ابتسامة مخيفة لا تتزحزح كما تقعد فوق فجوة فى حائط مهدم ٠٠ سيارة سوداء كريهة ٠ رجل بدين ٠٠ رجل آخر يدفع جثـة على عربة صغيرة ٠٠ نفس الرجـل يعود بالجثـــة مبقورة البطن تنزف منها الدماء وتسيل من العربة على الارض ٠٠ كلام لا أفهمه ، وكلام غيره لا أعيه ٠٠ كلام آخر يخرم أذنى ٠٠ أختك حبلى ٠٠ وشعرت وأنا أسير بضـيق شـــديد ٠٠ وأحسست ببغض وكراهية لا حـــد لهما لكل رجال قريتنا وشبابها ٠ ورحت أراهم وأرى وجوههم ، ولاسيما الذين كانوا يتندرون معنـــا ويخصون

وردة بالذات بابتساماتهم وأحاديثهم العذبة ورأيت وجه علي وحميدة ومحمود ، وعبد الستار ، وأبو ســـــنه ، وزيدان ، وخطاب ، والبيلي ، وسالم ، وخليل ، وعبد المغني ، ورأيت وجوههم جميعا وتبدت لي كوجوه الكلاب الضالة أو الثعابين الجـائعة فبكيت ، بكيت بكاء شديدا ، ولم أبك هذه المرة من أجل وردة كما كنت أبكي طول النهار • وانما بكيت من أجل نفسى ، اذ أين أذهب وأين أقيم، ان لم أرجع ثانية الى القرية التي كرهت أهلها •

وظللت أسير ، وظلت هذه الاشباح تطاردني ، وهذه الكلمات تطرق أذنى ، وتلك الوجوه التي تشبه وجـوه الكلاب والثعابين تطالعني أينما تلفت ، كما ظلت الدموع تروح وتجيء في عيني ، وتتساقط حينا حتى تسيل على صدرى وتبتل بها ثيابى ، وتجف حينا حتى تحترق عيناى ، الى أن بلغت التفتيش ، ورأيت عنــد أقصى ما تصل اليه نظراتي التي أتعبتهـــا الدموع ظلالا صغيرة أشبه ما تكون على الارض الخضراء وأكــوام الحصاد الناصعة بالنقط السوداء التي لوثت الثوب النظيف • فعرفت فيها لداتي وأترابي وأهلي وعشيرتي • ففرحت وهزتني هذه الفرحة وفاضت على قلبي سرورا وسعادة عندما بلغت جموعهم ، ووجدت جوال زوادتي كما هو لم يمس •







التحقت بخدمة الزعفراني بك كسائق لسيارته البويك موديل ٤٦ ، كان الشيء الوحيد الذي حرصت عليه هو أن احافظ ما استطعت على هذا الرزق الذي أتيح لي ٠ وعلى لقمة العيش هذه التي ظفرت بها بعد طول عذاب وطول انتظار وطول دموع زرفتها عيناى ٠ فقد علمتنى الايام والشهور الستة التي عشتها شريدا أقطع عشرات الاميال في اليوم أبحث عن عمل بعد أن طردت بلا سبب من خدمة أسرة عبد القوى بك التي كنت أعمل عندها ، حتى تهرأ حـــــذائي وانبثق الدم من قدمي دون فائدة ، ودون أن أعرف حتي سبب طردي المفاجيء ، بلا سبب سوى ماقاله لي يوما عم عبده بواب منزل عبد القوي بك الذي التقيت به صدفة في الطريق ، فاشفق على ورثى حالي وتألم لفقرى حتى أنه حاول أن يعطيني عشرة قروش أشترى بها طعاما فرفضت رغم أنه كان لي ثلاثة أيام لم أتناول سوى نصف رغيف بقى من رغيفين كنت قد اشتريتهما من أيام ٠

قال لي عم عبده بالحرف يذكر لي أسباب طردي بلا جريرة أو ذنب ٠٠ ان السبب كما يبدو وكما سمع طرفا منه من بعض الخدم ٠ هو انني شاب في شرخ الشباب وسيم وجميل وفي الطمعة ٠ هكذا قال ٠٠ وأن البك عنده بنات ـ فايرين ـ هكذا قال أيضا ، واني

بحكم عملي أخلو بهن كثيرا اذ أذهب بهن وحـــدى الى المدرسة وأعود بهن وحدى من المدرســـة · وهذا فيه ما فيـــه من خطر لا تحمد عقباه ·

ومع انى أعطيت عبد القوى بك كاب بعض الحق فيما ذكر · وبعض الحق فيما فعل من أجل الحرص على بناته ، الا أن هذا السبب لم يدر لي بخلد ، فأنا انســان لي خلقي ولي ديني ولي مبادىء وأنا أصلا من أسرة كريمة ، لا تقل أصلا عن أسرته خلقا وكرما ، لولا ظروف الزمن التى أطاحت بأسرتى وألقت بى كطائر صريع فى بستان ·· يستند الى غصن أو يتعلق بفرع · أو يستظل بشجرة بعد ان كنت أنا الغصن والفرع والشجرة والبستان نفسه ·· ومع ذلك ما ذنبى أنا اذا كان الله قد خلقنى وسيما جميلاً وفى الطمعة · كما يقول عبد القوى بك ·

ولما لم أجد فى الحديث فائدة ، ودعت عم عبده شاكرا له هذا العطف ولماانصرفت أحسست بضيق شديد من أولئكالذين يحكمون على الناس بالمظهر دون أن يتعرفوا على خلقهم وسلوكهم ، وان كنت فى نفس الوقت شعرت بعد هذا الحديث باطمئنان لمصيرى فى عملي الجديد ، اذ أن الاسرة التى التحقت بخدمتها وهى أسرة الزعفرانى بك · لم يكن فيها والحمد لله بنات «فائرين» أو « غير فائرين· » يخشى على مصيرهن منى فأطرد كما طردنى عبد القوى بك فقد كانت هذه الاسرة الجديدة قوامها ثلاثة أفراد فقط ، هم الزعفرانى بك والسيدة الجليلة زوجته · وابنهما الوحيد يسرى · وهو طالب فى السنة الثالثة الابتدائية واكاد لا أراه الا نادرا لأنه يروح ويجىء فى سيارة المدرسة اما السيدة الكريمة والدته ، فقد كانت سيدة فاضلة حقا ، وقور متدينة ·· وكانت متواضعة الى حد كبير حتى أنها كانت تعاملنى كابن لها ·· وكانت لا تنادينى أبدا بذلك اللقب المعروف لوظيفتى « يا أسطى محمد » بل دائمـا كانت تقول يا محمد افندى واذا طلبت منى شيئا كانت تتواضع وتقول فيما يشبه الرجاء يا ابنى · وقد كان تواضعها هذايخجلنى كثيرا · بعكس سعادة البك فقد كان متعجرفا ومتغطرسا الى حد كبير يثير السخط وأحيانا الحنق أيضا · وكان رغم سنه التى تزيد على الخمسين · متألقا الى حد يلفت النظر ويرتدى دائما الثياب الفاقعة الالوان ، والقميص الحـــرير الخفيف النسيج حتى أن ثدييه والشعيرات البيضاء التى تغرقهما تكاد تبدو واضحة من خلال الفانلة الرقيقة النسيج والقميص الخفيف ·· هــذا بخلاف



الياقة المنشاة العالية التى تكاد تخنق رقبته وتجعله لا يحركها الا بصعوبة • وكذلك كانت الكرافتة الزاهية التى يتوسطها دائما الدبوس الذهب الذى تحلى رأسه قطعة كبيرة من الماس تشبه تماما فى حجمها وفى بريقها بريق وحجم فص الخاتم الماسى الذى يحلى به اصبع يدهاليسرى وكان هذا كله يختلط بريقه ببريق شعرهالذى وخطه الشيب من كثرة الدهون التى دهنه بها ، هذا بخلاف المنشة الطويلة التى تشبه ذيل الحصان ويدها التى من الصدف والتى زينها بانسيال يحمل الحرف الاول من اسمه والتى كانت لا تفارق يده أبدا • وكان سعادته طويلا فارع الطول •• مما جعل وسامته وأناقته تبرز هذا كله وتجعل العين تخطر عليه دون سواه من الرجال •

وكان الزعفرانى بك يشغل فى ذلك الحين وظيفة وكيل وزارة• وشاغل هذا المنصب فى ذلكالوقت كان الها واذا تواضع فهو أحد سدنة الله فى الارض يعطى ويأخذ ويعز ويذل ويقهر وينصر • وكان يجيد تمثيل دوره اجادة تامة• كان تماما فى البيت أوفى الوزارة أشبه ما يكون بيوسف وهبى عندما يمثل على خشبة المسرح ويتقمص دور الامبراطور • أو دور القيصر • أو الكاردينال •• وكانت الابتسامة لا تعرف طريقها ابدا الى ثغره • وأيضا كان لا ينطق الا نادرا ، اذكر أننى كنت أمكث بالشهر لا اسمع له صوتا • فقد كنت كل ليلة عند المساء أنتظره بالسيارة عند باب الحديقة حتى يقبل وهو يجر ساقيه متهاديا كالطاووس • فاهرع على الفور وافتح له باب السيارة وأنا انحنى حتى يكاد راسى يبلغ قدميه فلا ينظر حتى الى • وعندما يركب اغلق الباب واسرع الى المقود وأذهب به كما هى العادة كل ليلة الى مطعم سان جيمس وكان مكانه اذ ذاك أمام سينما ديانا الآن • وعندما اقف بالسيارة أمام باب المطعم تتكرر نفس الحكاية أهبط سريعا وأفتح له الباب وأنحنى حتى يبلغ رأسى مكان قدميه الى أن يدخل فأعود انا الى السيارة وأجلس فى قلبها أنتظر حتى ينتهى سعادته من سهرته التى كانت تمتد الى الواحدة والثانية صباحا كل ليلة فأعيد نفس الحكاية الى أن يصل الى البيت دون أن ينبس أو تسمع أذنى غير صوت محرك السيارة فى الليل • وأذكر ذات ليلة أن سعادته خرج من المطعم متأخرا على غير العادة فوجدنى فى قلب السيارة وقد استغرقت فى نوم عميق دون أن أدرى فمد يده فى كبرياء وراح ينقر على زجاج النافذة ففطنت اليه عندما فتحت عينى ، ولما رأيته أمامى ارتعبت رعبا شديدا وألقيت بنفسى سريعا من

السيارة فانزلقت قدمى وسقطت على الارض ولاحظت وأنا أنهض سريعا فى خوف أنه كان يريد أن يبتسم ولكنه لم يفعل ، اذ زم على شفتيه وقطب فى غضب حتى ذوى مابين حاجبيه المزججين فازددت رعبا • ومن ليلتها حرمت على عينى النوم فى قلب السيارة أمام سان جيمس مهما طال بى السهر حتى ولو أذن الفجر •

ومع ذلك كنت راضيا ومطمئنا أيضا ما دام لم توجد هناك منغصات تهددنى فى رزقى كما كان يحدث لى سابقا عند الاسر المتعددة التى عملت عندها من قبل • فقط كانت هناك أشياء صغيرة كتلك التى تحدث دائما فى كل بيت ومع كل خادم أو كل سائق سيارة • منها متطلبات السيارة وحاجتها الى كثرة الانفاق عليها لقدمها تماما كحاجة الرجل المسن الى الادوية والعقاقير ليعيش • ولكنى استطعت أن أتغلب على هذه المشكلة بخبرتى السابقة لذلك كنت أقوم باصلاح ما يمكن اصلاحه • ماعدا الاشياء الدقيقة أو التى تحتاج الى تغيير • ومن هذه المنغصات أيضا أو لعلها كانت من المشكلات مشكلة كوثر ــ وكوثر هذه هى الخادم الوحيدة فى كل هذا البيت الكبير ــ فلقد كانت مشكلتها معى منغصة للغاية فهى فتاة خبيثة خبثا يحسدها الخبثاء عليه • وذكية أيضا ذكاء مذهلا لدرجة أنه يدهشك كيف يتوافر كل هذا الذكاء وكل هذا الخبث لفتاة ريفية جاهلة لا تعرف الألف من الباء ، ولاتعرف الفرق بين البرتقال واللارنج مثلا • حقيقة كانت جميلة جمالا رائعا • يأخذ بلبك وكان جمالها أيضا خطيرا فيه نفس الخبث وفيه نفس الذكاء بحيث يستطيع أن يوقعك فى شباكه بمجرد أن تطرح هى الشباك • ولولا أن الله يجنب بعض عباده السوء وينجيهم من الشرور ولاسيما من هم مثلى يعبدونه كل هذه العبادة ولايريدون من دنياهم أكثر من لقمة العيش التى يتبلغون بها لكنت وقعت فى شباكها من أول نظرة ، ورحت أتلوى بين رموش عينيها الطويلة تماما كما تتلوى السمكة عندما تطبق عليها خيوط الشباك • ولم تكن هذه الخطورة تكمن فى عينيها الواسعتين فقط ولا فى رموش عينيها الطويلة فقط هذه الرموش السوداء التى تشبه رقى التعاويذ والسحر •• وانما كانت هذه الخطورة تكمن أيضا فى كل جارحة فيها فى قوامها الفارع المشوق كغصن الربيع • فى جسدها الملتف المكتنز الشبيه بتمثال من المرمر ويبدو لك هذا واضحا فى كل انحناءة وفى كل انخفاضة وفى كل سفح وفى كل قمة من قمم هذا التمثال المرمرى الرائع • وكان هذا الخطر يكمن أول ما يكمن فى شفتيها بالذات هذه الشفاه الغليظة المتلمظة دائما • وكان يكمن

أيضا فى ذقنها الحـــلو الطرى كالملبن والذى يشبه الى حد كبير
نصف كمثراية طازجة يجمل هذا الذقن الحلو شريط عريض أخضر
من الوشم الذى بلون البرسيم فى نضرته • وكان وضعه تماما
فوق الذقن وتحت الشفاه وكان فى لمعانه وزهوه وشموخه كعلم
دولة لم تعرف فى حياتها غير الانتصـــار •• ولست ادرى لماذا
كنت كلما تطلعت الى شفاه هذه الفتاة ، شعرت بالخــوف الذى
تكاد ترتعد له فرائصى فقد كنت أتخيل دائما هذه الشـــفاه الغليظة
المتلمظة أشبه ما تكون بسداده لقنينة مليئـــة بأخطر أنواع السم
المركز الذى لو ذرة منه تطايرت قتلت على الفور وابادت للحظتها،
ولذلك كنت دائما أتحاشاها ولا أسمح لها أن تخلو بى أو تتحدث
الى ولا حتى الحديث العابر • ومع ذلك فقد كنت من سوء الحظ
وخيبة الطالع أراها كثيرا واتحدث اليها أيضا كثيرا فقد كانت هى
التى تأتى لى بالطعام فى الجراش وهى التى تعد لى الشـــاى أو
القهوة أحيانا • وكانت سلطتها فى البيت كبيرة وأوامرها نافذة
على الخدم أمثالى أنا وعم اسماعيل الجنايني وعم عريان البواب
وفرغلى بائع اللبن وحسنين بائع الصحف • وكان عم اسماعيل
كثيرا ما يحدثنى عنها وعن خطرها وبطشها بمن تريد اذا رغبت•
ويقول لى بالحرف :

ـ حاذر يابنى من هذا الاخطبوط الذى يبدو فى صورة ملاك
ويتزيى بزى احدى حوريات الجنـــــة فان أوامرها فى هذا البيت
نافذة وكلمة واحدة منها لها فعل القنبلة التى تنسفنا جميعا ـ ولما
كنت أسأله عن سبب هذا السلطان ومن الذى أعطاه لهـــا • كان
يمد يده المرتعشة ويمسح بها على لحيتهالبيضاء المشتعلة ويقول ـ
أن الست الكبيرة تثق فيهـــا ثقة عمياء • وأيضا تحبها كثيرا لان
أمها أى أم هذه الخادم كانت هى الدادة للبك الصـــغير وللست
ذاتها ثم ينتهى قوله هذا دائما بتنهيدة طويلة ويتمتم بصوت خافت
لا يكاد يسمع ، هذه الجملة دائما التى كانت ختام كل حديث••
« الله أعلم بالسرائر » ولعل قول عم اسماعيل هذا هو الذى اثر فى
تأثيرا كبيرا مما جعلنى أخشى هذه الفتاة ، وأخافهـــا وأتجنبها
ما استطعت • حتى أننى كنت أهرع الى الله فى جنح الظلام وأسأله
أن يجنبنى شرورها وأن يجنبني كيدها ان أرادت أن تكيـــد لى •
وأحسست أنه تعـــــالى قد استجـــاب الى دعائى اذ عـــرفت
كيف أعاملهـــا كزميـــل فقط وأجعلهـــا تعاملنى كزميـــل شريف
يتوجب على النـــــاس احترامه •• وقد جعلنى هـــــذا أطمئن
على مستقبلى الى حـــــد كبيـــر • ولـــكن لم أكن أدرى وأنا كذلك
بأن القـــدر يخبىء لى ما لا أريده وأن يورطنى فيمـــــا لم أكن

أود أن أتورط فيه، ورغم أننى جاهدت جهاد الانبياء حتى لاأتورط فى سوء مع هذه الفتاة ، وكان الذى يهمنى بالدرجة الاولى كما قدمت • وأضعه دائما نصب عينى هو مثلى وشرفى ودينى وخلقى الطيب الذى ربيت عليه ، وحرصى الشديد على ألا ألوث الاناء الذى آكل فيه أو أشرب منه • وربما كان هذا الحرص سببه أيضا ودون أن أدرى هو تمسكى بالدرجة القصوى بلقمة العيش هذه التى ظفرت بها بعد طول عذاب وطول دموع كما شرحت قصتى فى بدايتها • ولهذا كان الصراع الخفى بيننا على أشده • لانها كانت كلما وجدتنى فى طريقهـــا • راحت تأتى بالاعاجيب كما لو كانت بهلوانة فى ســيرك وهى تستعرض صنوف الاغراء ، وضروب الغــواية ، واشــعال النــار التى كانت تطلق شرارتهــا الشرارة تلو الاخـرى فتكاد تمزق الجسد وتشعل فيــه النار حتى أن ألســنتها وحرقة جذوتها تكاد تنسـينى كل شىء حتى الاناء الطاهر الذى آكل فيه والوعاء النظيف الذى أشرب منه • حتى القيم التى تمسكت بها ، والمحراب الذى عشت فيه كالراهب الذى يغلق عينه عن الرؤية جميعا سوى تلك النـافذة التى يطل منهـا على السماء يدعو الله أن يجنبه شرور هذه الدنيا وآثامهـا كدت أنساها وأغفل عنها • ومن ســوء الحظ أن الله تعالى ولحكمة لا نعرفها • يخص فئة من عبـــاده بامتحان مرير لا يستطيع أن يجتازه حتى نبى •

وأنا لن أتحدث عن قسوة هذا الامتحـــان ومرارته • ولا عن الشرارة الاولى أو الثانية أو الثالثة أو حتى المائة التى حرقتنى، وانما سأتحدث عن اليوم الذى تحققت فيه الهزيمة وكان خيبـة آمال لأشياء كثيرة • عشت على أكثرها عمرى • لقـد تمثل لى هذا اليوم أشبه ما يكون بحلبة للمصارعة ، يزدحم فيهـــا ملايين البشر ليشاهدوا ذلك الصراع الابدى بين بطلى البشرية العملاقين ـ الرجل••والمرأة ـ وقد تزود كل منهما بأسلحته •• أحدهما بمثله وخلقه وقيمه وايمانه••والاخر بأسلحته الدنيوية المدمرة والمسمومة بشتى أنواع السم الزعاف الذى يقتل ويميت ويدمر •• يقتـــل بالبعد ويقتل بالقرب •• يقتل بالهمس ويقتل باللمس ، يقتل بلفتة جيد ، ويقتل بارتدادة طرف أو اغفاءة هدب ، يقتل حتى من رعشة نهد أو هزة ردف •

ومع كل هذه الاسلحة المزودة بكل هذه السموم • ومع كل تلك الاسلحة التىيحملها الطرفالآخر والمزودة هىالاخرى بكل ماهو واق

ومحصن وشاف لكل جرح · وترياق لكل سم فان الجولة الاولى لم تكد تبدأ ، ولم تكد تمر الثوانى الاولى حتى كانت الضربة القاضية· وخرج المتفرجون جميعا وكلهم ايمان بالخطأ الاكبر الذى تورطوا فيه والذين يتورطون فيه دائما عندما يحضرون هذه المباريات بالذات لمعرفة أيهما سينتصر · اذ أن النتيجة لم تخطيء ولا مرة واحدة منذ الخليقة الى الآن · منذ ان خلق الله آدم وحواء ·· الرجل ·· والمرأة ·

كان اليوم الذى حدده القدر لهذه المباراة ، يوم جمعة ، وهو اليوم الذى لاتخرج فيه السيارة من الجراش· اذ أن الست الكبيرة لم تكن لتخرج الا نادرا جدا · وسعادة البك لم يتصور الخروج نهارا فى هذا اليوم وكنت كما هى العادة فى كل يوم جمعة· أقضيه فى تنظيف السيارة ، واصلاح ما يكون فيها من خلل وتغيير الزيت · وكان الجراش داخل البيت وكان بابه بجوار باب السلم الداخلى مباشرة· وهو السلم الذى كنا نطلق عليه ـ سلم الخدم ـ وكانت كوثر تنظف زجاج النوافذ وأبواب غرف البيت جميعا · والتى كانت تخصص لها هذا اليوم بالذات تغسلها وتنظفها وتمسحها بورق الصحف القديمة التى كانت تجمعها طوال الاسبوع لهذا الغرض · وكنت فى ذلك الوقت مرتديا الافرول · أو العفريتة بلغة أصحاب ورش اصلاح السيارات · وكنت مستلقيا على ظهرى تحت السيارة أعالج فك ـ طبة ـ الزيت لاستبدال الزيت بآخر جديد وكانت الطبة ـ مزرجنة ـ فأتعبتنى وأرهقتنى ارهاقا شديدا حتى تلوثت ثيابى ووجهى بالزيت والشحم الاسود الذى يشبه القار والعرق يتصبب منى وبينما أنا كذلك احسست بما يشبه حفيف الثوب · أو وقع الخطى عندما تتحسس الاقدام الحذرة مكانها وتسير فى وهن وكأنها تسير فوق الماء · أو فوق تل من الرمال الناعمة · ولما نظرت من تحت السيارة لم أتبين من خلال عجلاتها غير قدمين حافيتين مبللتين بالماء · ورأيت بالقدم اليسرى خلخالا فضيا يلتمع التماع القدم الجميلة المبتلة ، فعرفت على الفور أنها كوثر · ولست أدرى لماذا فجأة دق قلبى واحسست بنبضه أشبه ببندول الساعة المختل · وشعرت بصدرى ينقبض انقباضا شديدا حتى انه راح يعلو ويهبط كالقربة وضايقنى أنها تجيء الى الجراش الان وبهذه الطريقة التى تشبه التسلل فى الظلام · فألقيت بالمفاتيح الحديد التى كانت فى يدى وخرجت لها من تحت السيارة متجهم الوجه مكفهر السحنة أضغط على قبضة يدى فى عصبية شديدة دون أن أدرى·وكأننى أريد أن أشج

راسها بقبضة يدى . ولكنى عندما نظرت اليها وجدتها فى وضع يثير العطف اكثر مما يثير الغضب • فقد كان يبدو عليها الارهاق الشديد ، والتعب الذى لا حد له • وكانت مرتدية ثوبا قديما ممزقا وكان الثوب مبتلا حتى لكأنه غرق فى لجة من الماء مما جعله يلتصق بجسدها التصاقا شديدا ولاسيما من فوق البطن مما جعله والجسد قطعة واحدة •• حتى انها كادت تبدو عارية تماما لدرجة أن تلك الاستدارة الصغيرة التى تتوسط البطن ، والتى تشبه الثقب فى ثمرة ناضجة • رأيتها بوضوح • كما رأيت أشياء أخرى كثيرة من خلال التمزقات العديدة التى فى الثوب ، ولولا اننى كنت قد قرأت او سمعت لا ادرى ، بأن ملابس النســـاء تبلى وتتهرأ أول ما تبلى من عند اماكن البروز فى الجسد ومن فوق قممه العالية• لظننت انها هى التى تعمدت أن تجعل بالثوب هذه المزق وفى هــذه الاماكن بالذات • والا ما معنى أن اكثر هذه الثقوب وضوحا هى التى فوق انحناءة الكتف وعند الابط ، أو فوق استدارة الردف • أو فى هذا المكان بالذات فوق الصدر • لدرجة أنك تستطيع اذا أمعنت النظر أن ترى ما يشبه منقار العصفور المتمرد يمتد اليك من خلال تمزقات الثوب كما يمده من خلال أسلاك قفصه الحبيس فيه محاولا أن يقرضها ليخرج الى الدنيا ••

وبطبيعة الحال ومن نعمة الله على ايضا • اننى لم أهتم بشىء من هذا كله ، أو حتى أفكر فيه أو أعيد النظر بل سألتها على الفور وفى لهجة لا تخلو من عنف ، بل ربما كانت أول مرة اخاطبها فيها بهذه اللهجة العنيفة وأنا اسألها عما جاء بها الى هنــا الآن ؟• فقالت وكأنها تلهث ، بل كانت تلهث بالفعل وهى تشير الى وعاء فارغ كانت تحمله ••

ـ أريد أن أملأ هذا بنزينا •

ـ لماذا ؟••

قلتها فى عنف •

فقالت فى ارهاق وشفتاها ترتعشان :

ـ أخلطه بالماء وأنظف به الزجاج •

فحولت وجهى عنها وقلت فى ضيق وأنا أشير الى خرطوم من البلاستيك كان معلقا بمسمار فوق حائط الجراش :

ـ هذا هو الخرطوم • وهذا هو خزان البنزين ـ ورفعت لهـا

الغطاء ، وعليك أن تضعى طرف الخرطوم في الخزان وتمصي من طرفه الآخر بشفتيك حتى يجيء البنزين فاملئى الوعاء ..

ففعلت ماقلته لها دون أن تنبس ولما جلست القرفصاء ووضعت الوعاء بين فخذيها وطرف الخرطوم بين شـفتيها وراحت تمتص البنزين من قلب الخزان تركتها وانصرفت الى مقدمة السيارة . وفتحت علبة الزيت ورحت أفرغ ما فيها فى خزان الزيت واذا بى فجأة اسمع صرخة مكتومة وبشىء ثقيـــل يسقط على الارض . فألقيت بعلبة الزيت وأسرعت اليها فاذا بهـــا منكفئة فوق أرض الجراج غارقة فى لجة من البنزين الذى تصاعدت رائحته . وكان ظهرها لى وثوبها الغارق فى الســائل الحارق ملتصقا بردفيها العاليين حتى كأنها عارية تماما . فارتبكت وأغمضت عينى على الفور . وأنا أسألها سريعا ماذا حدث : فتمتمت وهى تتلوى فوق الارض من الألم :

ـ انزلقت قدمى ومن فوقى وعاء البنزين بعد أن ملأته .

ومن ثم راحت تتلوى ثانية فوق الارض . وكأنها أفعى مضروبة على أم رأسها تتلوى فوق بســاط من العشب فأمسكت بيـدها وأنهضتها وأنا فى حالة من الاضطراب والاستياء أيضا لانها كانت تتألم حقيقة وأوقفتها بجانب الحائط ولما استندت اليه اسرعت الى ـ الجلد ـ الذى انفض به السيارة والذى يمتص السائل سريعا ورحت أعتصر لها الثوب وامسح بالجلد على صدرها وكتفيها . وكانت فخذها اليمنى هى أكثر شىء يؤلمها . وكنت متحرجا أن ارفع طرف الثوب وأمسح عليها بالجلد . فمدت هى يدها ورفعت طرف الثوب . وكان السائل يغرق فخذها بالفعل . فرحت وأنا مغمض العينين أمسح عليها وأنظفها من السائل ، بيد أنها فجأة استدارت الى الحائط ودفنت وجهها فى قلب ذراعيها فوقه وهى تقول مجهشة وكأنها تصرخ من الألم :

ـ أرجوك .. ابتعد .. ابتعد .. ابعد يديك ، ان هذه النار التى تحرقنى لا تساوى شيئا بجانب جمرات أصابعك كلما مست جسدى .. أرجوك ابتعد .. ابعد .. يديك .. لا تجعل أصابعك تلمسنى .

فرددت يدى سريعا فى ذهول . ووقفت مشدوها واحسست على الفور أننى تجمدت فى مكانى كما تتجمد كتلة من الثلج . وسقط الجلد من يدى . وظللت كذلك دون أن أقوى على تحريك قدمى أو

حتى تطرف عينى ولما رأتنى كـــذلك استدارت لى وهى مازالت تجهش • فرأيت وجهها الذى اغرقته الدموع • فازدادت دهشتى وكنت قد قدرت على أن أغلق عينى فأغلقتهما • وكنت قد قدرت أيضا على أن ابتعد فلمـــا حاولت اقتربت هى منى لاهثـة تترى أنفاسها وكأنها تخرج من بئر عميقة وتتمتم بصوت محموم أشبه بصوت المريض الذى فى النزع الاخـــير وهو يسأل طبيبـــه هل سيعيش وقالت وهى تمســـك بكتفى وتهزهما وكأنها تهز حجرا صلدا :

ـ هل سأراك •• قل نعم •• لا تقل لا •• أرجوك •• أرجوك •• قل نعم •• ثم جففت بعض الدموع وهى تستطرد وتهز كتفى :

ـ قل نعم •• قل نعم ••

وكانت غاية ما أتمناه أن تتحرك شفتاى لأقول لا •• لا •• بل وألف لا •• ولكنى لم أقدر • وكل الذى قدرت عليه أنى عندما أحسست بأنفاسها تتحسس وجهى وشفتيها تتحسان شفتى •• وصوتها ينصب فى أذنى كأنه النـــار •• وهى تقبلنى فى أذنى وتتمتم :

ـ الليلة السابعة والنصف عند باب سور حديقة الحيوان •

حركت أنا أيضا شفتى ولما عرفت أننى قادر على النطق قلت وأنا أتمتم بصوت خافت جـــدا كصوت الطبيب الذى يعرف بأن مريضه قد مات :

ـ حاضر السابعة والنصف عند باب سور حديقة الحيوان •

ولا أدرى بعد ذلك هل قبلتنى ألفا أو أكـــثر ولكن الذى أعلمه أنها بعد أن خرجت من الجراش • وقفت حينا ألهث اعياء وظللت كذلك زمنا لا أدرى هل طال أم قصر • أما الذى أنا متحقق منه أن الســاعة لم تكن تبلغ السابعـــة والنصف حتى كنت أرتدى أبهى حلة عندى وأروح وأجىء أمام باب سورحديقة الحيوان• وعيناى معلقتان الى الطريق الذى أمامى أنتظر أن تهل على طلعة كوثر • وما هى الا لحظات حتى هلت طلعة بالفعـــل ولكنى لم أكن أبدا أنتظرها • كانت هذه الطلعة التى هلت على فجأة هى طلعة السيارة البويك موديل ١٩٤٦ يقودها سعادة البك نفسه وبجواره الست الكبيرة وما أن وقف بالسيارة أمامى مباشرة حتى ألقى فى وجهى على الفور بثلاثة جنيهات كأنه كان يمسك بها فى يده • كما ألقى معها أيضا وفى وجهى كذلك ببصقة كبيرة من فمه وهو يقول :

ـ هذا حسابك وحذار أن تقترب ثانيـــة من البيت والا ألقيت بك فى السجن • ثم استطرد وهو يلتفت الى الســــيدة زوجته ويقول :

ـ كيف لا تصدقين •• هل صدقت الآن ؟

ولما أدار محرك السيارة وهم أن ينصرف قالت السيدة الكريمة زوجته وكانت ممتقعة الوجه :

ـ أنت الذى كنت أقول عنـــك انك •• طيب وابن حـــلال • وانك تصلى •

وأرادت أن تقول شيئا آخر ولكن سعادة البك أطلق لسيارته العنان • فوقفت مكانى متجمدا • ومنذ تلك اللحظة والشىء الذى مازال يرهقنى التفكير فيه ارهاقا شـــديدا • ويرهقنى أكثر مما أرهقنى تلك الدوامة التى بلا ماء • والتى مازلت أدور فيها بحثا عن اللقمة حتى اليوم • هو عم اسماعيل الجناينى عندما التقيت به واتفقت معه على أن اتسلل ذات ليلة فى الظلام وأقترب خلسة من سورالحديقة ليلقى الى من خلف بثيابىالتى كانت فى الجراش وتأنيبه لى لأننى لم أستمع الى نصيحته عنـدما حذرنى من ذلك الاخطبوط المسمى بكوثر • والسر الحقيقى لكل الذى حدث • وهو ان سعادة البك يهيم غراما بكوثر • وأنه يغار عليها من الهواء • وأنه منذ اليوم الذى التحقت فيه بخدمته • وهو يصر على طردى بحجة أننى شاب ومستهتر وأننى لست على خلق • بينما تصر الست الكبيرة على بقائى بحجـــة أننى طيب وابن حلال وأننى أصلى ، ولما انعدمت كل وسيلة عند سعادة البك لاقناعها بوجهة نظره• راهنها على أن يمتحنا أخلاقى • ولما اتفقا، أطلقا على كوثر ككلب الصيد لتوقع بالفريسة •

أقول ان الشىء الذى مازال التفكير فيه يرهقنى منذ أن عرفت ذلك • هو أننى اذا أعطيت العذر لعبد القوى بك ، الذى طردنى من خدمتهخوفا على بناته منى، بحجة أننى أخلو بهن أحيانا بحكم عملى • وبحجة أنهن فى سن فائرة • وأنا فى سن الشباب ووسيم وفى الطمعة •• أقول اذا جاز لى أن أعطى له هذا الحق • فكيف أعطيه للزعفرانى بك الذى طردنى من خدمته وشردنى فى الطرقات خوفا منى على •• على عشيقته •• ولكن لم لا ؟••



أهلا وسهلا



شــــديد دلفت الى المبنى فى الظلام ٠ وفى خوف متزايد التفتت الى الوراء ، ولما لم تجد أحدا يراها استردت أنفاسها ، ولما اصلحت من هندامها راحت تخترق الممر وتتخطى بعض أبواب الشــــقق ، وهى تبحث عن باب معين بالذات وصف لها وصفا دقيقا ، وكأنها لم تكن تريد أن تتعرف عليه لانها عندما وقفت أمامه عاودها نفس الاضطراب ونفس الخوف ٠ وهمت أن ترجع فعلا ، ولكنها تذكرت شيئا هاما هى فى حاجة اليه ، ولهذا لم تشأ أن تفكر ومدت يدها المرتعشة وضغطت على زر كهربائى صغير ، وترامى رنين الجرس الى أذنيها من الداخل أشبه بعواء ذئب جائع ٠ فارتعش جسمها كله بعد أن كانت يدها هى وحدها التى ترتعش وراحت تنتظر وتترقب ، انها تريد لهذا الباب أن يفتح سريعا وسريعا جدا ، وهى تريد له ألا يفتح أبدا ٠٠

انها كانت لاتعرف ماذا تريد٠٠وسمعت صوت المزلاج يتحرك من الداخل فأغمضت عينيها سريعا حتى لا ترى خوفا أبشع من هــــذا الخوف الذى هى فيه ٠٠ وانفتح الباب من فرجة صغيرة ، ومع ذلك دلفت منها سريعا دون أن ترى أحدا ووقفت فى الداخل ، فقد كانت الردهة شبه مظلمة وكانت لاتزال أيضـــا مغمضة العينين ٠٠ كان ظهرها له وهى واقفة ، وكان ظهره لها وهو يغلق البـــاب ويحكم اغلاقه جيدا ٠٠ ولما فعل استدار وقال ولكن قبل أن يرى وجهها :

ـ أهلا وسهلا ..

وتمتمت هى صوت خافت بعيد وهى تفتح عينيها :

ـ أهلا بك ..

وأشار الى غرفة مضيئة وقال وكأنه لم ير وجهها أيضا :

ـ تفضلى ..

وسار أمامها وسارت هى من خلفه .. ولما اقتربت من شعاع النور الباهت المنبعث من فرجة الباب تبينته ، ولما رأته شعرت على الفور باشمئزاز لا حد له نحو هذا الرجل العجوز الذى وخط الشيب شعره وتقوس ظهره واعوج حتى ساعده وراح يسير أمامها كما تسير الدببة تماما .. ما أقذر أمثال هؤلاء الرجال .. حتى هذا الرجل أيضا .. حتى وهو فى هذه السن .. وزمت شفتيها سريعا فى اضطراب اذ ظنت ، ولا تدرى لماذا ظنت هذا الظن .. ظنت أن الهواجس والاحاسيس والمشاعر قد تسمع لغتها الاذن .. وهى لاتريد أن تسمعه الا كل مايرضيه ..

وكانت قد بلغت الغرفة ورأت بعض المقاعد المتناثرة هنا وهناك فى فوضى عجيبة ، كانت المقاعد أشبه ماتكون معطلة ، تبدت لعينيها أشبه ما تكون بتماثيل قديمة ملقاة فى العراء من آلاف السنين .. وتأملتها ثانية ورأت فيما رأت شيئا انزعجت له وزاد كثيرا من اشمئزازها .. رأت مائدة كبيرة عليها خمر .. أجل خمر .. زجاجة كبيرة ممتلئة .. وأخرى بجوارها فارغة .. ورأت أيضا كأسين ، كأسا فارغة لم تمتلىء بعد .. لم تمتلىء أبدا فهى لذلك نظيفة لامعة ، حلوة فى العين .. ورأت كأسا أخرى قذرة شاحبة ملوثة ، أشبه ماتكون بالشىء المتعب .. المرهق .. المنهوك القوى .. وكان بها خمر .. وتبدت لها هذه الكأس وكأنها تئن من كثرة ماتعبت .. من كثرة ما امتلأت وما فرغت ... لعل هذا الرجل شرب كثيرا .. لعله أرهق هو أيضا .. ونظرت اليه لاول مرة ، ورأت عينيه .. رأتهما بلون الدم المسفوك لساعته ، أو هما تماما بلون البقايا التى فى قلب هذه الكأس المتعبة ... ترى من الذى أتعب الآخر وأرهقه كل هذا الارهاق ؟؟..

ونظرت اليه ثانية وأحسست باشفاق زائد عليه . ولكنها عندما نظرت الى عينيه مرة أخرى حل محل الاشفاق عليه خوف كبير منه ، دق قلبها دقات سريعة سريعة جدا .. كل ذلك وكانت لاتزال واقفة..



وكان هو قد أعد لها مقعدا بجوار مقعده ‥ ولما فعل قال وهو ينظر اليها لاول مرة :

ـ تفضلى ‥

فجلست ‥‥

ـ اهلا وسهلا ‥

نطقها وهو يجلس بجوارها ويتفحصها جيدا ‥ فتمتمت ولكن دون أن تنظر اليه :

ـ اهلا بك ‥

ولما أشعل لها السيجارة قال :

ـ حدثتنى عنك كثيرا الست شفيقة ‥

فلم تجب لانها استشعرت على الفور سخطا هائلا على شفيقة هذه أطبق على انفاسها ‥‥ كان دائما سخطها على شفيقة هكذا يطبق على الانفاس ‥ كان تماما أشبه مايكون بالسخط المغيظ الذى يستشعرة انسان نحو انسان آخر ورطه فى شر كبير ‥ فى حياته مثلا ‥

وكان قد نسى انه قال لها شيئا ‥ ونسى أيضا أنه حياها لانه قال لها سريعا وهو يتعمقها بعينيه هذه المرة :

ـ اهلا وسهلا ‥

ونظرت الى الكأس التى أمامه ‥ والسيجارة التى تضطرب بين شفتيه المرتعشتين ، وأشفقت لاول مرة فى حياتها على رجل مخمور ، ولذلك قالت وهى أيضا تتعمقه بعينيها :

ـ اهلا بك ‥

وأراد أن يقول لها شيئا اخر ‥ ولكن السيجارة سقطت من بين أصابعه فتناولتها هى من الارض واطفأتها ‥ وكأنه قدر لها هذا الجميل ، لانه قال وهو ينظر هذه المرة الى الزجاجة التى أمامه ويمد يده اليها :

ـ اهلا وسهلا ‥

وأرادت أن تضحك هذه المرة ، ولكنها زمت شفتيها سريعا لانها رأته يملأ لها كأسا وهو يقول :

ـ ماء ‥ ثلج ‥ صوده .

وكانت لاتعرف شيئا من ذلك كله ، انها تعرف أنها تكره الخمر ولا تطيقها ، وأرادت أن تقول له ذلك ، ولكنها تذكرت أنها قالت هذا لرجل غيره ذات مرة فغضب وطردها شر طردة ٠٠ ترى هل سيطردها هو أيضا ان قالت له ـ لا ـ ؟ وصمتت لحظات ٠٠ وقال هو ثانية :

ـ ماء ٠٠ ثلج ٠٠ صودة ٠

ـ ماء ٠٠

وانفرجت أساريره عن ابتسامة حلوة وهو يناولها الكأس ٠٠ وتألقت هذه الابتسامة اكثر وهو يراها تشرب ٠٠ وأدهشها أن انسانا يسره عذاب الآخرين ٠٠ ولذلك قالت :

ـ الى هذا الحد أنت تحب الخمر ؟

فقال وهو يضحك هذه المرة :

ـ أحب الخمر وأحب شفيقة لانها عرفتنى بك ٠٠

وتحرك السخط فى قلبها على شفيقة عنيفا حتى احست به يكاد يمزق احشاءها ولذلك قالت له فى عنف :

ـ منذ متى أنت تعرفت بشفيقة ؟

فقال وهو ينظر اليها فى دهشة زائدة :

ـ من شفيقة ؟ ٠٠ انا لاأعرف احدا بهذا الاسم ٠٠

وراحت تنظر الى عينيه وقد تبدتا لها كذبالة تريد أن تنطفى ٠٠ وصمتت ٠٠ وصمت هو أيضا لحظات مسح خلالها سائلا لزجا كان ينساب من بين شفتيه المرتعشتين ومد يده الى الزجاجة وأفرغ لها كأسا أخرى وقال وهو يقدمها اليها :

ـ اهلا وسهلا ٠٠

ولم تدر لماذا احست باشفاقها عليه يتزايد ويتزايد ٠٠ ولذلك تناولت من يده الكأس وراحت تشربها وكأنها راضية عنها ، سعيدة بها ٠٠

وحانت منه التفاتة الى يدها المطبقة على الكأس وهى تشرب ٠٠ ورأى شيئا فى احدى أصابعها يلتمع فى عينيه ، ولما تأمله جيدا وعرف أنه دبلة من الذهب قال وهو يريد أن يضحك :

ـ أنت متزوجة ؟

فقالت وهى تعيد الكأس الفارغة الى مكانها وتتذكر شيئا :

ـ كنت ••

فقال وهو يضحك هذه المرة :

ـ وأنا أيضا كنت ••

ثم قال وهو يضحك طويلا :

ـ أهلا وسهلا ••

ولما أفرغ لها الكأس الثالثة قال وهو مازال يضحك :

ـ اذن نحن متساويان •• اذن اشربى •• أجل أجل •• نحن متساويان ••

وتناول كأسه هو وشربها مرة واحدة ثم قال وهو يناولها كأسها :

ـ وأين ذهب زوجك ؟

ـ مات ••

ـ أهلا وسهلا ••

قالها وكأنه يقولها لنفسه هذه المرة •• ولذلك لم تجب هى بشىء ولهذا قال هو :

ـ ولماذا لم تتزوجى ؟

ـ عندى ولد ••

وكان موجه طاغية من الفرحة المباغتة غمرته وجرفته الى بعيد •• لانه راح يضحك ويقهقه ويهتز فوق المقعد حتى كاد المقعد يسقط به •• ولذلك أمسك به أو أمسك هو بنفسه حتى لا يسقط من فوقه •• وقال وهو يحاول أن يمسك عن الضحك ويتمسك بالمقعد الذى يجلس عليه :

حقيقة عندك ولد ؟ أهلا وسهلا ••

وكانت الدهشة قد عقدت لسانها ورغم ذلك قالت :

ـ نعم •• وما الغريب فى ذلك ••

ـ لا لا لا •• الغريب الا يكون ذلك ••

فنظرت اليه طويلا وتمتمت دون أن تدرى ••

ـ انك عجيب أيها الرجل ••

ـ ها ها ها ها •• اشربى ••

وظنته قد سمعها فغضب ، فاضطربت ولكنها لما نظرت الى وجهه ورأته مازال متهللا وما زال يضحك •• اطمأنت وتناولت منه الكأس وشربتها •• فقال وهو يملأ له كأسا أخرى :

ـ لا أظن ••

ـ ما رأيك لو نجرب ؟••

ـ كيف ؟••

فلم يجب وانما تناول سريعا علبـة الكليوباترا من على المائدة ونهض • وراح يتخطى الموائد المزدحمة ليصل اليها •• ولكنه قبل أن يصل اليها كانت قد تناولت حقيبتها وانصرفت • فخرج خلفها •• فاندهشت لهذا التصرف • وجلست أنتظره • ولم يمكث كثيرا حتى عاد وعلي وجهـه علامات الاسف •• ولما سألتـه قال وكأنه يتأسف على شيء •

ـ يخيل لى أنها مجنونة لجنوننا وليست مجنونة بنا كما ظننت ••

ـ ما الذى حدث ؟

ـ ظننتها لما غادرت المكان هكذا سريعا •• أرادت أن تتحدث الى فى الطريق على انفراد ••

ـ وماذا حدث ؟

ـ فى الطريق اختفت حتى لكأنها ذابت فى المارين جميعا ••

وصمتنا ولم نتحدث •• ويظهر أننا صمتنا طويلا لاننى نظرت فى الساعة فاذا بها الثامنة والنصف • ويظهر أن صمتنا هذا الطويل قضيناه فى الحديث عنها • لاننى وجدتنى أقول له صادقا :

ـ لست أدرى لماذا تعلقت بها ، منذ أن فتحت عينى عليها ••

ففكر قليلا •• وكأنه تعلق بها هو الآخر •• لانه قال فجأة :

ـ ما رأيك لو سهرنا معها الليلة ؟

فاندهشت دهشة كبيرة وقلت :

ـ أين ؟

فقال وكأنه قد صمم على شيء :

ـ الم يقل لنا سيد وهو يقدم لنا الطعام •• انها احيانا تظـل جالسة حتى تفتح خمارة مخالى ؟

ـ فعلا قال ذلك ••

ـ لماذا لا نذهب الى خمارة مخالى ؟

ولم يطل بى التفكير لاننى احسست برغبة شديدة فى أن أراها ••

اليمين مرة وذات الشمال مرات حتى لتكاد تنخلع •• نظراتى التى تتدهور وتتبعثر بين أقدام الجالسين وارجلهم •• فقال وهو يبتسم اشفاقا على ويرمينى بالغباء كعادته :

ـ انها معك منذ أن جلست •• وبجوارك لا تتحول عينها عنك ••

فالتفت سريعا فاذا بها بجوارنا فعلا •• تجلس الى مائدة قريبة منا جدا •• وتجلس نفس الجلسة •• وذراعها فوق المائدة •• وراسها فوق يدها •• والسيجارة تحترق بين شفتيها •• ونظراتها تروح وتجىء بين الجميع •• ثم فى النهاية تستقر علينا ••

ولما نظرت اليها حولت نظراتها بعيدا وراحت تنظر الى جماعة أخرى من السكارى ابعدتهم الخمر عن الدنيا وعن الوجود ايضا • وامتدت بنا الجلسة ، وكلما فرغت الكاس ملأها لنا مخالى ، وكلما فرغت أطباق الطحينة والفول النابت والسودانى ، امتلأت من جديد حتى سكرنا وسكر الجميع •• وراح كل منا يغنى على ليلاه ويبكى على اطلالها •• الحزين يبكى حزنه • والمريض يبكى مرضه حتى السعيد بكى سعادته •• حتى اختلط الحابل بالنابل •• هذا يبكى ، وهذا يضحك ، وهذا يشكو وهذا يستمع •• وفجاة ووسط هذه الزحمة من الضحك تناولت حقيبتها واخرجت نظارتها السوداء ذات الشرخ المستطيل فى العين اليمنى ووضعتهـــا على عينيهـــا وانصرفت صامتة لاتطرف أو تنبس •• ولكنها عند الباب فعلت شيئا لا ادريه حتى الآن هل هى بعض الدموع ارادت أن تحبسها فى عينيها •• أم انها كانت تشير لى عندما رفعت اصبعها ومسحت على شىء عند العين •• ولكن الذى ادريه اننى نهضت سريعا لألحق بهـا ولكن صاحبى كان قد امسك بكتفى واقعدنى •• واردت أن أقاوم •• وقاومت فعلا •• ووقفت ثانية فى اصرار لألحق بها • غير أنه حدث ما أقعدنى على الفور لاهث الانفاس •• وجعلنى أنسى كل شىء حتى هذه الفتاة التى مااحسست اننى احببتها حقيقة سوى الآن •• وذلك عندما ظهر لنا مخالى من اين لاأدرى ووضع أمامنا علىالمائدة ورقة الحساب •• وما أن لمحت شيئا فيها حتى تهاويت على المقعد متجمدا كأننى قطعة من الثلج ••

فقد اتضــــح أن مجموع الحساب اربعـة جنيهات ونصف جنيه وثلاثه قروش ••

وأمسك صاحبى بالقلم وبالورقة •• وبالنظارة يضعها على عينيه مرة ويرفعها أخرى •• وراح يجمع ويطرح ويسأل •• ويعيد الجمع

والطرح ويكرر السؤال ويعيد الجمع مرة رابعة وخامسة .. الى أن القى بالقلم فى النهاية وهو يقول :

ـ لا فائدة ، لم يبق من الاحتياطى سوى سبعة قروش ..

وعندما نهضنا كانت السبعة قروش لا تزال فى يدى .. كنت أصفعه .. وهو يعطى الى عم أحمد ماسح الاحذية العجوز قرشا من السبعة ..

وكانت الساعة قد قاربت على الثانية صباحا .. فانصرفنا نسير على مهل فى الطريق والظلام .. حتى بلغنا ميدان العتبة الذى كان خاليا الا من سيارتين أو ثلاث من سيارات الاتوبيس .. وصبى يركض فى الميدان كالفار الهارب ينادى على صحف الصباح .. وكان هو يسير أمامى فى شموخ وكبرياء كعادته .. وفى نفس هذا الشموخ والكبرياء أشار الى الصبى الذى جاء اليه قفزا مطلع الصحف الثلاث : الجمهورية والاهرام والاخبار .. فأمسكت بيده سريعا وهو يدفع بكل الاحتياطى تقريبا ثمنا لهذه الصحف . ولكن الصبى كان قد التقط بيده الورقة ذات الخمسة قروش ووضعها فى جيبه وأعطاه نصف القرش وانطلق كأنه السهم . فقلت له فى غيظ أو فى توسل لا أدرى .. وأنا أمد له يدى :

ـ عليك بهذين القرشين الباقيين ..

ـ لماذا ؟

نطقها دون أن يلتفت الى .. فقلت له فى ضيق حقيقى :

ـ باق دقائق على آخر اتوبيس يذهب الى مصر الجديدة .. وانت تعلم أننى أقطن هناك .. وتعلم أن التذكرة بقرشين ..

فقال وهو يقف تحت عمود النور ويطالع عناوين الصحف :

ـ وماذا أعمل أنا عندما لايبقى معى سوى نصف القرش.. وأنت تعلم أننى أقطن بالجيزة وأن التذكرة بقرش كامل ..

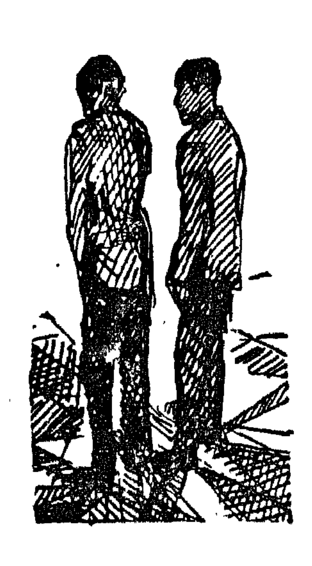
ووقفنا نتدبر الامر .. ونتدبره سريعا لانه لم يبق غير دقائق على قيام آخر اتوبيس لى أو له .. وقد تدبرناه سريعا فعلاً .. فقد اتفقنا على أن أبيت عنده هذه الليلة .. وبهذا يستطيع كل منا أن يدفع ثمن تذكرته .. ونستطيع علاوة على ذلك أن نبقى على نصف القرش معنا يسعفنا عند الحاجة ..

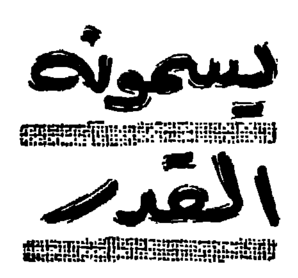
وشعرنا بشيء من السعادة لاننا وفقنا الى هذه الفكرة.. غير أنه

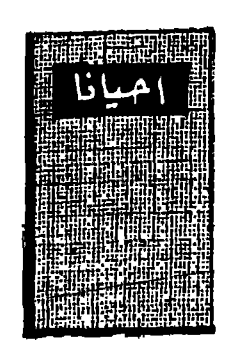
ونحن فى الطريق الى الاتوبيس •• جدت مشكلة جديدة كادت تفقدنا هذه السعادة •• وهى مشكلة أنه ليس عنده سوى بيجامة واحدة •• فكيف ننام نحن الاثنين •• ولكننا تغلبنا عليها سريعا أيضا اذ اتفقنا على أن يقتسم كل منا نصفها مادمنا نقتسم معا كل شيء ••

وركبنا •• واستدار بنا الاتوبيس عند مبنى البريد وراح يقطع الميدان فى الليل •• واذا بى فجأة أراها تسير وحدها تقطع الميدان والنظارة السوداء مازالت على عينها •• والشرخ المستطيل الذى فى زجاجة العين اليمنى يؤكد أنها هى ••

وبلا تفكير •• ودون تريث •• وجدتنى أقفـــز من الاتوبيس •• وصاحبى يقفز خلفى •• وكاد يســـقط ولكنه نهض سريعا وراح يركض معى •• الى أن بلغنا المكان الذى رأيناها فيه • ولكننا لم نجدها •• لم نجدها فى الطريق الذى كانت تسير فيه ولا فى طريق غيره •• ورحنا نقطع الميدان الخالى شمالا ويمينا •• ونجوبه طولا وعرضا •• فلم نر أبدا غير ظلين اثنين لانسانين كانا يتخبطان فى الظلام ••







تحس بأن لك رغبة شديدة فى الحصول على ـ شىء ـ ما • شىء أنت تجهله ولا تعرفه ؟ هل هو صديق ؟ هل هو مال ؟ هل هو جاه ؟ هل هو رحلة ؟ هل هو صحة ؟ هل هو طعام ؟ وتظل تفكر فيه وتبحث عنه جهد الطاقة ، وكلك ايمان بانك ملاقيه دون شك •• ودون أن تدرى يصبح هذا ـ المجهول ـ الذى تريده هو شغلك الشاغل •

وهذا ما حدث لى بالفعل •

ذات يوم اتصل بى زميل • وتواعدنا على اللقاء فى بهو فندق معروف •

وذهبت فى نفس الموعد ، وكان المكان غاصا بالرواد حتى أننى لم أجد مائدة ولا حتى مقعـــدا اجلس اليه وكان صــاحبى لم يجىء بعد •

كنت يومها بالذات منشرح الصدر مرتاح البال على غير العادة • ولماذا ؟ لا أدرى • الا أننى مع ذلك كنت غير مستقر فى مكانى • وكنت كما هى العـــادة اتلفت ذات اليمين وذات الشمال وكأننى أبحث عن شىء وبمجرد أن جلست فكرت ماذا أطلب عندما يأتى الجرسون •• قهوة •• شـــاى •• شىء مثلج •• لا اطلب شيئا

اطلاقا ؟ وبينما انا فى هذه الدوامة الصغيرة من التفكير لمحت فجأة امامى وعلى المائدة التى تقابل مائدتى مباشرة • والتى لا يفصلها عنها سوى مكان صغير لا يتسع لغير المقعد الخالى الذى هو بين المائدتين ، والذى هو الفاصل الوحيد بينهما ، لمحت سيدة ماأن رأتها عيناى حتى ارتمت نظراتى عليها ارتماء وتمسكت بها كما يتمسك الغريق بشىء فيه انقاذ حياته ، كما أحسست على الفور وأنا انظر اليها كأن شيئا فى صدرى يشبه الثقب الصغير ينفتح ويخرج منه دخان أسود متعفن كريه الرائحة كان متراكما فى صدرى من زمن • ودخل مكانه ومن نفس الثقب شىء بهيج ابيض ، استشعرت نحوه بنشوة بالغة اللذة ، فأرسلت نفسا طويلا مريحا • تماما كمن كان يحمل حملا ثقيلاوالقاه عن كاهله ، وجلس ليستريح من عناء رحلة شاقة • هو بالذات الشىء الذى كنت ــ اريده ــ الذى كنت ابحث عنه ، ولذلك وكما قلت ارتمت نظراتى عليها ارتماء •• والتفت بها وتشابكت حولها وتعقد بعضها ببعض فوق كيانها كله، اشبه بخيوط العناكب عندما تلقى فى الهواء فتتشابك وتتماسك وتتعقد فلا تنفصل أبدا ولا حتى اذا تقطعت ، وكيف انفصل عنها أو اتركها واجعلها تفلت من يدى بعد أن عثرت عليها ، وهل ينفصل الانسان عن نفسه ، عن حياته عن ــ حظه ــ الذى واتاه •

والغريب أننى كنت اشعر وأنا أفكر هذه الأفكار وأنظر اليها ، أنها كانت نفس افكارها ، فلم احس انها تضايقت من وجودى ، أو تأذت من وابل نظراتى التى تتساقط على وجهها من كل ناحية وتسبح عليه وتكاد تغرقه كما تغرق قطرات المطر وجهك فى الطريق وتبلله بالماء ، فمثلا لم تنظر لى نظرة استهجان ، ومثلا لم ترفع طرفها كلما التقى الطرفان ، بل كان هذا يسرها كما بدا لى ••

وكانت تجلس معها على نفس المائدة سيدة اخرى ، وكانت هذه السيدة ثرثارة تتحدث اليها كثيرا وكانت هى تضيق بهذه الثرثرة لأنها كانت تستمع اليها احيانا ، واحيانا أخرى تنشغل عنها بتحسس بعض أكياس من النايلون والورق المقوى كانت امامها فوق المائده وكانت هذه الاكياس ممتلئة بحاجات لم يكن منها سوى كيس التريكو الممتلىء بالخيط والابر ، وبقدر ماكنت احس بالضيق لوجود هذه السيدة معها ، كنت أستشعر سعادة لا حد لها لأن صديقى لم يجىء بعد فيحول وجوده بينى وبين شىء كنت أريد أن أفعله وان كنت لا أدرى ما هو •



وجلسنا كذلك ، وتلاقى الطرفان أكثر من مرة وهمست الشفاه فى صمت أكثر من مرة ودق القلبان أكثر من مرة وكانت دقاتهما تتعالى أحيانا وترن فى أنحاء الصدر كما ترن الاجراس فى المعبد فى يوم عيد، وبينما نحن كذلك نظرت تلك السيدة الثرثارة الجالسة معها الى ساعتها ثم نهضت لتتحدث فى التليفون كما فهمت من الطريق الذى اتجهت اليه ، ومن حسن الحظ كان مكان التليفون فى هذا الفندق بعيدا ٠

ولاول مرة فى حياتى أعرف أن للعيون لغة يمكن التخاطب بها ، لأنها عرفت ما قلت لأنها قالت وبنفس العيون التى كانت تبتسم كما كان يبتسم الثغر تماما ٠٠

وشعرت باضطراب شديد وبخوف قاتل اذ خشيت أن تعود تلك السيدة قبل أن نفعل شيئا ، قبل أن أتصرف كما قالت لى ، وكأنها احست بما أنا فيه من ارتباك وعجز فأرادت أن تتصرف هى ، بل تصرفت بالفعل ، اذ مدت يدها الى كوب العصير الذى كانت قد شربته ورفعته ثانية الى شفتيها ورشفت بقاياه ، ولم تعده ثانية الى مكانه فى الطبق وانما وضعته جانبا ، وبتريث وفهم ورغبة شديدة أن تفعل شيئا ٠٠ أمسكت بذلك المنديل الورق الرقيق الذى فى قلب الطبق وخطت على طرفه شيئا دون أن يراها أحد ٠ ومن ثم أمسكت به وكأنها تعبث بأطرافه التى راحت تمررها بين أصابعها وهى تنظر الى وكانت ماتزال تبتسم ـ كانت باستمرار تبتسم ـ وهمت بأن تعيد المنـــديل الى مكانه من الطبق ، ولكنها عادت فخشيت أن يأتى الجرسون ويأخذ الطبق بما فيه وهو لا يدرى أن حياتنا فى قلبه ، أو على الأقل حياتى أنا فى قلبه ٠ فأرجعت يدها بالمنديل ثانية وهى تنظر هذه المرة تحت المائدة وحواليها بل وعند قدميها بالذات وفكرت فى أن تلقى به فى هذا المكان، ومن ثم التقطه أنا بعد أن تنصرف هى ، وهذه فكرة صائبة تدل على ذكاء فرحت به، وبينما هى كذلك مترددة فى المكان الذى تلقى لى فيه بالمفتاح ، وبينما حياتى مازالت معلقة بين أناملها تروح بها وتجىء ، اذ فجأة يحدث شىء مرعب ، شىء مخيف ، فقد خرج اليها فجأة شىء كأنه الهول أو كأنه الغول الذى كانت تحدثنا عنه جدتى ونحن أطفال ، ولا أدرى هل شق الأرض وخرج اليها أشبه بقطعـــة من الحجر الصلد تقبض عليه يد سياف من سيافى الأساطير الاقوياء العمالقة ٠

ألقت بالورقة التى كانت فى يدها سريعا ٠٠ ومن حسن الحظ

انها القت بها بجانب الطبق وليس فى قلبه ، وقد حدث هذا دون ان يراها ففرحت انا لهذا كثيرا ، وفى هـــذه الأثناء اقبلت تلك السيدة التى كانت تتحدث فى التليفون ، ومن حديث قصير بين الثلاثة وهم يحاولون الانصراف عرفت ان هذا ـ الغــول ـ هو ـ السائق ـ ولأنه مد يده وامسك بالأكياس الممتلئــة التى كانت فوق المائدة وحملها وفجأة وبلا مناسبة أمســــك بالمنديل الورق الرقيق الذى بجوار الطبق وراح يعتصره بين أصـابعه الغليظة وهو يجفف به العرق الكريه الملوثة به يده فتمزقت الورقة وتهرأت بين أصابعه الضخمة ، ومن ثم سار خلفهما وهو لايزال يعتصر تلك الورقة الرقيقة بين أصابعه ويعتصر معها قلبى •

مكثت متسمرا فى مكانى لحظات، لاأدرى هل طالت أم قصرت• ومن ثم نهضت سريعا تدفعنى قوة مجهولة وخرجت من الباب الخلفى للفندق ورحت أدور حول الفندق لعلنى ارى شيئا ، أى شىء ، أو أظفر بشىء أى شىء ، فلم ار غير سيارة بيضاء ضخمة ، تحمــل دنياى فى قلبها وتغيب عن عينى • فوقفت فى مكانى زمنا أنظر الى لا شىء بعد ان غاب عن عينى الوجود نفسه •

أحسست وأنا مازلت أقف فى مكانى بجــوار الفندق انظر الى دنياى وهى تغيب، والوجود وهو يغرب•• أحسست لفترة وجيزة •• وجيزة جدا تشبه الغمض •• أننى سعيد •• اذ تأكدت الآن اننى غير مجنون ، كما ظننت فى نفسى طوال تلك الســـنين التى قضيتها فى البحث عن شىء مجهول لا أعرفه •• بيد أننى أحسست فى نفس الوقت بأن تلك السكين عادت وانغرست فى صدرى ثانية وأنها أحدثت به نفس الثقب، وأن ذلك الدخان الأسود الكريه الذى كان قد خرج منه عاد يتسلل اليه ثانية •

وتململت فى مكانى ، وفكرت كثـــيرا وتألمت ، ولأول مرة فى حياتى عرفت مرارة التفكير وحرقة الألم وقسوة لهيب الحرمان عندما تحرق الجسد وكان الشىء الذى زاد فى ألمى هو أننى لم التقط حتى رقم السيارة ولم أعرف حتى صنفها •• اذ لو عرفت ذلك لكنت على الأقل امسكت بأول الخيط •

ورحت أدس قدمى بحثا عن ـ ابرة ـ سقطت فى قلب جبل من القش ، وكنت كلما أعجزنى البحث شعرت بحقد شديد على ذلك السياف الذى يشبه سياف العصور الوسطى وعلى يده تلك الغليظة وأصابعها التى كانت تفرى فى قوة تلك الورقة الرقيقة البيضـــاء وتفرى ايضا كبدى معها ، ولما يئست وبلغ الألم حواسى جميعا •

واختلطت المرئيات فى عينى حتى أصبحت أرى السيارة البيضاء سوداء ، والسوداء بيضاء ، والطويل قصيرا والقصير طويلا ، والوحيد الذى لم تتغير صورته فى عينى وكنت أراه فى غدوى ورواحى وفى نومى ويقظتى وكنت أراه كمــا هو لم يتغير هو ـ السياف ـ رحت من شدة هذا اليأس المميت أبعد هذه الافكار والصور عن نفسى كما تبعد ذبابة من على وجهك ولكن المؤسف أن هذه الذبابة كانت تعود ثانية ، ولكن على صورة أمل كبير يكاد يحقق لى فى سرعة الغمض كل ما أريد فأعود ثانية الى البحث ، وأعود ثانية الى اليأس • والغريب أن شيئا منهما لم ترجح كفته لا الأمل ، ولا اليأس غير أنى احسست ذات مرة وكان البحث قد ادمى قدمى بالفعــل • احسست بأن اليأس قد انتصر وأن كفتــه قد رجحت •



والغريب أننى بعد ذلك بعد أن احسست هذا الاحساس العميق باليأس نمت نوما عميقا • نمت ما يزيد على عشر ساعات • وبلا مهدىء أو منوم • وهذا لم يحدث لى من قبل • وقد اكد لى ذلك أننى بالفعل قد طردت من على وجهى تلك الذبابة التى كانت تطن فى فكرى وفى قلبى وابعدتها نهائيا واستيقظت فى صباح هــذا اليوم مبتهج النفس منشرح الصدر • أريد أن الهو كطفل • وأن أعبث كصبى • فخرجت من البيت ورحت كعصفور مرح أتنقل من

طريق الى طريق • ومن مكان الى مكان • وأرى الناس وكأنى أراهم لأول مرة • وأرى الشوارع والبنايات وكأنها جديدة على عينى • والحوانيت وكأنها العرائس فى الليل • أو كأنها قطع من الحلوى المختلفة ألوانها والمختلف أيضا مذاقها • ودخلت حانوتا معروفا أشترى منه نوعا من القماش كان لا يوجد الا فيه كما قالوا لى • وكان الحانوت الكبير غاصا مكتظا بالناس • وذهبت وسط هذا الزحام وهذا التلاحم الخانق لأتسلم ما اشتريت من « الكيس » بعد أن دفعت الثمن • ولكنى فجأة وقفت ذاهلا اذ غامت الرؤية فى عينى وراح يلتمع فيهما بريق خلب • كان تماما أشبه بالفلاش الذى تلتقط الصورة بريقه •• ووقفت لحظات مسحت خلالها على عينى اللتين كانتا تنفتحان وتنغلقان بمعدل ألف مرة فى الثانية • ولما هدأت حدة الضوء واستعادت عيناى الرؤية ثانية • رأيتها أمامى وجها لوجه • ودون أن أفكـــر لحظة • أو أنتظر لحظة • فقد كان كل ما فكرت فيه وفعلته تدفعنى اليه طاقة خفية تسبق ارادتى وتسبق أيضا تفكيرى • اننى أسرعت اليها على الفور • كما لو كنا على موعد • ومددت لها يدى التى كانت ترتعش من الفرحة • فمدت هى أيضا لى يدها وهى تبتسم وصافحتنى • وشممت فى يدها وهى تصافحنى رائحة الورد ولمست فيها نعومة أوراقه وأيضـا تضوع عبيره • وقالت وهى ماتزال تمسك بيدى :

ــ أين أنت ؟

فقلت ومازالت يدى ترتعش :

ــ فى الدنيا •

ــ لو أنك فى الدنيا حقيقة لما افترقنا •

فقلت سريعا وكأننى أخاف من شىء :

ــ وماذا أصنع ؟

ــ أقول أنا لك ماذا تصنع !

دار هذا الهمس بيننا سريعا وسريعا جدا • وباسرع منه أيضـا أرادت أن تستطرد وتقول لى ماذا أصنع •• بيد أنها تراجعت فجأة وقطبت وبرقت عيناها بريقا ناريا وهى تنظر الى مرآة صغيرة كانت أمامنـا •• ونظرت مصـادفة حيث تنظر هى فى المرآة •• فوقفت متخشبا أنظر بعينين متجمدتين الى السياف البشع الذى كان يقف خلفنا مباشرة • ولا أدرى حتى الآن هل هو هبط من السماء أو خرج علينا من الارض • والذى فى غلظة كغلظة الزمن مد يده الفولاذية

ولبثنا كذلك أنا وهو مايزيد على سنة ، وكانت الايام والليالى التى مرت أو تكاد تمر ، كانت بطيئة ثقيلة مملة ، الى أن اتصل بى ذات يوم فى التليفون فشممت على الفور فى صوته رائحة شهية تشبه رائحة السعادة تتسرب الى قلبى كما كان يتسرب صوته الى سمعى وهو يقول :

ـ حقق الله المسعى ، ووصلتنى البرقية ، وسأسافر بعد غد ٠٠

ـ بهذه السرعة ٠٠

ـ أتممت كل شيء وستقلع بى الطائرة مبكرة بعد غد ٠٠

فقلت وشيء من الألم يعتصر قلبى :

ـ ومتى سأراك ؟

ـ غدا مساء سأقيم حفلا صغيرا فى بيتى قد لا يحضره سوى أنت وقد يحضره أيضا صديق وزوجه وصاحب البيت ٠٠

وفى مساء اليوم الذى حدده ٠٠ وفى نفس الموعد كنت أول من ذهب الى بيت هذا الصديق العزيز الذى سيرحل ٠٠

وأقبل هو وزوجه السويسرية الجميلة ٠٠ وبقدر ما كان وجهه مشرقا كان وجهها الجميل يتألق نورا ٠ ٠ فقلت لهما على الفور :

ـ انكما تكذبان فليس هـذا حال بيت سيهجره أصحابه بعد ساعات ٠٠

فزايلت الاشراقة وجهه وهو يشير بيده ناحية مدخل البهو ويقول :

ـ أنظر هـذه حقيبة سفر صغيرة لى والتى بجوارها لزوجى ، وهذا كل ما نملك منذ أن خلقنا الى الآن ، أما هذا المسكن فانت تعرف أنى استأجرته هكذا وسوف أتركه هكذا ٠٠

وقبل أن أقول له شيئا اقبـل بعض معارفه : مهندس وزوجه ، وطبيب كان زميلا له وزوجه ٠ وصاحب البيت الذى جاء ليتسلم بيته ٠٠ ومن ثم جلسنا نتحدث أحاديث متفرقة وكنت كلما شعرت بكثير من الفرحة شعرت على الفور بما يقابلها وبنفس الكثرة من الضيق كلما عرفت أن عقارب الساعة تقترب من لحظة الفراق الى الابد ٠٠ وجعلنا هذا الضيق المغرق فى السواد نتحدث أحاديث كثيرة ٠٠ تحدثنا عن الجهل والمعرفة وعن الحياة والدنيا ٠٠ وعن تلك القوة المجهولة التى تسيرنا حينا الى الامام وحينا الى الخلف ٠٠ ونوعية هذه ـ القوة ـ ومن تمثل او فيمن تتمثل واحسست بخوف

ونحن نخوض هذه الاحاديث الشائكة لان الجهل احيانا يجعلنا نتطاول على بعض القيم كما أن العلم أحيانا يجعلنا نحطمها .

وبينما انا كذلك شعرت فجأة بموجة من الاضطراب تغمر كياني كله تغرقني فى دوامتها ودقات قلبى ترتفع وتدق بعنف حتى كدت لا أستطيع أن أسيطر على أنفاسي فاغمضت عيني ولم أفتحهما الا بعد لحظات على رنين الجرس الخارجى فالتفتنا جميعا أو على الاصح التفت أنا أولا فاذا بى أغمض عيني سريعا ثم أعود وأفتحهما سريعا أيضا لانى غير مصدق لما أرى .. فقد فتح الباب ودخل علينا نور باهر الضياء ، دخلت الدنيا ممثلة فى تلك السيدة التى شقيت بسببها كل هذا الشقاء .. رأيت الشقراء الجميلة زوجة صاحبى تهرع اليها وتعانقها بحرارة زائدة مما دل على صداقة بينهما ، وأنها جاءت الآن لتودعها مثلنا الوداع الاخير ، وأسعدنى ذلك كثيرا وزاد من هـــذه السعادة الغامرة أنها نظرت الى أول مانظرت كأن وجودى أسـعدها وكأنها دللت على ذلك بأنها اختارت المقعد المجاور وجلست عليه.. بعد أن صافحتنا جميعا وبعد أن قدمتها لنا صاحبة البيت وهي تقول فى جملة واحدة مقتضبة :

ـ جاه هانم ..

كنت وأنا جالس بجوارها أخشى أن أنظر اليها ، فقد كانت نظراتنا عندما تلتقى تتشابك على الفور ، وكنت أشعر بأن هذه الرغبة تكاد لا تقاوم كلما أحسست بأن الذى بينى وبين صاحبة البيت التى ستغيب عنا بعد ساعات لايسمح لي بأن استوضحها شيئا عن هذه السيدة ، وكنا جميعا قد انتهزنا فرصة مجيئها .

واقترح احدنا وهو المهندس الشاب الذى كان قد شرب كثيرا أن نقطع الوقت فى لعب الورق ، ولاقت هذه الفكرة ترحيبا من الجميع ماعدا ـ دنياى ـ التى إعتذرت بحجة انها لاتعرف اللعب. وانتهزتها انا فرصة لكى إعتذر انا أيضا ..

وقلت لها همسا وكأنى أخاطب غيرها ـ كيف سنلتقى ثانية ـ وما هى الوسيلة حتى لايفقد أحدنا الآخر مرة أخرى .

وانتظرت واجف القلب لتقول شيئا ، وأنا أعبث بأصابعى لاخفى اضطرابى بمشط علبة الثقاب التى أشعلت منها سيجارتى ، وانتظرت هى قليلا ثم راحت تنظر الى الجميع بينما شفتاها تتحركان نحوى هامسة :

ـ خذ رقم تليفوني واتصل به في العاشرة صباحا •

وترنح كياني من الفرحة التي كادت تفضح أمرنا لولا أنني تماسكت ورحت أعبث ثانية بمشط الثقاب الذى كان لايزال فى يدى وبقلم صغير كنت قد أخرجته خلسة ، ولما رأت هي ذلك عاودت همسها الحبيب الى أذنى وذكرت لي الرقم فدونته سريعا على طرف مشط الثقاب دون أن يفطن أحد ، وهممت أن أضع هذا الكنز الذى حصلت عليه في جيبي ، ولكني قبل ان افعل ترامى همسها الحبيب الى أذنى مرة أخرى وقالت :

ـ اكتب لى أيضا رقم تليفونك ••

وبحركة بارعة ، وكما يفعل الساحر المتمرن تماما كتبت لها رقم تليفوني على النصف الآخر من مشط الثقاب ، وبنفس الترتيب والاتزان وأنامل الساحر الماهر قطعت المشط الى نصفين ووضعت النصف الذى به رقم تليفونها في جيبى ووضعت النصف الآخر الذى به رقم تليفونى على طرف المائدة التى بيننا ، ومن ثم نهضت من جوارها واصطنعت حديثا مع الجماعة كلها لكى أترك لها فرصة التقاط الورقة ، وقد نجحنا في ذلك تماما لانني عندما عدت الى مقعدى بجوارها كانت قد التقطت الورقة ووضعتها فى حقيبتها •

كل انسان يستطيع أن يصف السعادة الا السعيد نفسه •• بدليل اننى غير قادر ولو مكثت عشرات السنين ان أصف سعادتي بعد أن حدث ما حدث ••

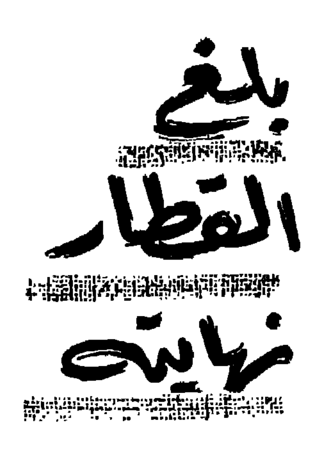
وقد تأكدت من ذلك بعد أن مر مايزيد على الساعة ، ودق جرس الباب الخارجى ورأيت ـ السياف ـ منتصبا أمامي بقامته المديدة ووجهه الصلد الاسود • كان منظره من قبل يبعث فى نفسي الرعب كل الرعب ، والخوف كل الخوف • أما هذه المرة بعد أن رأيته يأخذها وينصرف كدت من السعادة أخرج له لسانى ، ولعلى اخرجته بالفعل تشفيا ••

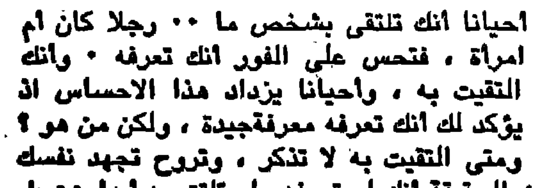
ولا أدرى كيف مضى الليل بعد ذلك ، فقد كنت فى بحر من السعادة تدفعنى أمواجه وتسيرنى هى كما تشاء ، ولذلك عندما ودعنا لطفى وزوجه في المطار وعدت الى البيت وكانت الساعة حوالى السابعة صباحا لم انم ، وانما مكثت أعد الدقائق والثوانى بل وأعد أنفاسى وأنا انتظر أن تدق الساعة دقة الفرح ، دقت العاشرة كما تواعدنا •• وعندما دقت دقاتها العشر ودق قلبى معها أيضا عشر دقات ومددت

يدى ورفعت سماعة التليفون وباليد الثانية الورقة التى فيها الرقم ..
ولكنى ما أن نظرت اليها والى الرقم المدون فيها حتى جحظت عيناى وتدهورت أنفاسى .. وما أن عرفت الخطأ الذى تورطت فيه ، وهو أننى بدل أن أعطيها رقم تليفونى أعطيتها رقم تليفونها هى ، وبدل أن أحتفظ فى جيبى برقم تليفونها احتفظت برقم تليفونى ..

ما أن عرفت ذلك حتى دارت بى الارض وسقطت من يدى سماعة التليفون وتجمدت يدى مكانها .. وتجمدت عيناى أيضا وهما تنظران الى ذلك - السياف - العملاق الذى كان يقف أمامى بوجهه الصلد وعينه المتحجرة ويده الغليظة الفارعة ، وكان كعادته شاهرا سيفه ولكن السيف هذه المرة لم يكن كما رأيته من قبل يلتمع نصله فى عينى .. بل كان هذه المرة ملوثا يقطر دما فى قلبى .







احيانا انك تلتقى بشخص ما •• رجلا كان ام امرأة ، فتحس على الفور انك تعرفه • وانك التقيت به ، واحيانا يزداد هذا الاحساس اذ يؤكد لك انك تعرفه معرفةجيدة ، ولكن من هو ؟ ومتى التقيت به لا تذكر ، وتروح تجهد نفسك فى التفكير •• مع ان الحقيقة انك لم تعرفه ولم تلتق به ابدا •• بل ولم تره عينك من قبل •

وقد حدث لى هذا كثيرا وتورطت فيه كثيرا • بل وسبب لى فى كثير من الاحيان الحرج الذى لاحد له •• ذلك لان اقتناعى باننى فعلا اعرفه وهو ايضا يعرفنى •• كان يجعلنى اخشى اذا انا مررت به دون ان التفت اليه او احييه ان يظن هذا تعاليا وربما يرمينى بالكبر• وانا لا ارضى ان اتهم بهذه التهمة الظالمة •• لذلك كنت التفت اليـــه واحييه واحيانا اصـــافحه •• واصافحه فى حرارة •• فاذا به يفاجئنى ويدى مازالت فى يده ويسألنى من انا ؟؟ فأخجل واتصبب عرقا على الفور وانا اقول له تلك الجملة التقليدية والتى لا يوجد ما يقال غيرها •• متأسف ظننتك شخصا آخر ••

وكثيرا ما كان البعض يظننى أسخر منه حتى أن احدهم ذات مرة وبعد أن تركته وأنا أتصبب عرقا •• لحق بى فى الطريق وكادت تقوم بيننا معركة اذ كيف اسخر به هذه السخرية •• ولما تكررت هـــذه

الظاهرة ووضحت عندي •• ظننتني قد أصبت بفقدان الذاكرة ••
وذهبت الى أحد الاطباء •• وكان من المتخصصين فى هذا النوع من
المرض •• وكانت تربطنى به صداقة •• فقال لى وهو يبتسم :

ـ اطمئن •• كل ما فى الامر انه عندك شحنة زائدة فى الذاكرة
شحنت بها حواسك جميعا •• فغدوت ترى الشيء فتحس بأنك تعرفه •

بهذا القول •• وبهذه الفلسفة الخرقاء البالغة حد الجهل ••
والتى يلجأ اليهـــا بعض أطباء علم النفس ليداروا بها جهلهم ••
وتذكرت على الفور قولا مماثلا سمعته كثيرا فى الاذاعة والتليفزيون
وقرأته مرارا فى الصحف لكثير من ـ الفلاسفة ـ الذين يتحدثون
عن الفرد أو المجتمع ، وهذا القول هو ـ ضامن المضمون داخـل
اطار الضمان التلقائى للفرد الذى يتكون منه المجتمع ـ وأشهد أننى
مكثت سنوات أحاول أن أفهم فلم أفهم ولن أفهم ان شاء الله •

ولما قلت هذا لصاحبى الطبيب ضحك وقال :

ـ ان الشخص الذى تظن أنك تعرفه لدرجة أنك تصافحه بحرارة
فى الطريق •• ولم تكن قد رأيته من قبل سوف تعرفه فيما بعد ويكون
لك معه شأن •• وهذا مايسمى بالشحنة الزائدة فى الحساسية كمـا
قلت لك، هذه الشحنة التى نمتلىء بها الحواس حتى لتكاد تبلغ احيانا
درجة التنبؤ •• وأحاول جاهدا أن أعرف أينا أكثر جهلا من صاحبه•
أنا الذى أفهم •• أو هذا الطبيب النفسانى الذى يشبه تماما فلاسفة
هذا العصر الذين يعمقون الجهل بهذا القول ـ ضامن المضمون داخل
اطار الضمان التلقائى للفرد الذى يتكون منه المجتمع ••

كنت افكر فى هذا وغيره ذات ليلة ركبت فيها آخر قطار يغـــادر
اسيوط الى القاهرة •• وهو القطار الذى أطلق عليه أحد الاصدقاء
ـ قطار الشعب ـ أو قطار الظلام •• وهو فعلا مظلم فى كل شيء ••
معتم فى كل شيء •• حتى لكأنه أحد الابطال البخلاء يقف عند كل
محطة يطيل الوقوف حتى لتكاد تظن أنه بلغ نهايته •• وهو القطار
الوحيد الذى لم يدخله الناس من أبوابه •• وانما من نوافذه ••
تلقى عليك أسفاط البلح والعجوة •• وأجولة الارز والعدس ••
ومواجير المش وبلاليص العسل الاسود •• ثم تلقى الناس بنفسها
بعد ذلك •• ولما لم أستطع حتى التنفس • نهضت أتنقل بين عرباته
الى أن بلغت عربة الدرجة الاولى فلم أجد بها غير اثنين •• احدهما
وجيه يشخر ويتعالى شخيره حتى ليكاد يسكت صوت القطار ••
والثانى عجوز شمطاء •• امسكت بيدها مرآة صغيرة وبعض المساحيق
التى راحت تلطخ بها وجهها • وكلما طمسته بالدهون برزت التجاعيد



من خلف المساحيق كما تبرز الثعابين الصغيرة من خلف الاعشاب. وكان الجلوس فى الدرجة الاولى مريحا ولكن الذى كان غير مريح هو حافظة نقودى التى فى كثير من الاحيان أو فى كل الاحيان كانت تحول بيني وبين ما أحب واشتهي ..

وانتقلت الى عربة الدرجة الثانية ، وكانت بين بين .. وان كنت قد وجدت بها ميزة .. وهي انها تكاد تكون فارغة ، فجلست فى ديوان فارغ الا من نفايات كثيرة من قشر البرتقال وأصابع الموز .. ومصاصات القصب ، التى كانت تبدو فوق الارض اشبه بخليط من الحشرات .. واشعلت لفافة من أخرى وفتحت كتابا كان فى يدى ، ولكني لم أر سطرا من الظلام فاغلقته ثانية ونظرت الى ساعة باهتة كانت فى يدى فلم أر عقربها الا بصعوبة .. فتركتها وأخذت أصغى الى صفير القطار فى الليل .. وكأنه نواح ثكلى قد بح صوتها .. أو كأنه لحن جنائزى يوقعه عازف جاهل . وشبه لى القطار نفسه كأنه النعش . والعربات التى يجرها هى زتل من الثكالى يسرن خلف الميت . وأعدت أو عدت الى ذلك عشرات المرات . السيجارة والكتاب ..والساعةالباهتة. ونواح القطار.. واللحنالجنائزى.. والنعش والميت..والذين يشيعونه.. وأحسستبالوحدة..وشعرتبالضيق.. وتفهمت حقيقة الالم ، وتعمقت مذلة الفقر .. ونظرت الى النافذة ..

وودت أن ألقى بنفسي منها وأستريح .. أستريح من هذه الحياة التى نعيشها . والتى كتبت قدرا علينا والتى لاتزيد فى شيء عن رحلة هذا القطار .. وما يجرى فيه .. سيجارة تحرق .. وصفحة تقلب وأنفاس تعد .. وكل الذى بين الاثنين أن هذا القطار يقطع بنا الطريق والحياة تقطع بنا الايام .. وعما قريب سيبلغ هذا القطار نهايته .. وعما قريب ستبلغ بنا الحياة نهايتها .. وأحسست ببعض الهواء يتسرب فى الليل من الممر .. وكان هو الآخر سمجا باردا ممعنا فى البرودة .. فنهضت لاغلق باب ـ الديوان ـ الذى أجلس فيه .. فاتضح فعـــلا انه كان له باب .. ولكن فى سالف العصر وسابق الزمان .. فعدت ثانية الى مكانى متذرعا بالصمت والصبر والتسليم .. وهى الاسلحة الثلاثة التى سلح بها القدر .. العاجز ..وأحسست برغبة صادقة فى أن أشعل سيجارة .. فأخرجتها من العلبة ووضعتها بين شفتى كملك من ملوك الرومان . أو سلطان من سلاطين الدولة العثمانية .. وفى نفس العظمة والكبرياء التى تجتاح فى بعض اللحظات البؤساء والتعساء .. اشعلت عود الثقاب .. فأطفأه الهواء اللعين قبل أن تشتعل السيجارة .. وكان هو العود الوحيد الباقى فى العلبة .. فابتسمت .. وكثيرا ما تكون هـــذه

ـ الابتسامة ـ بالذات هى السـلاح الرابع الذى يتزود به كل من يعبر رحلة حياة شاقة ••

ومرت لحظات تسللت لى فيها حفنة من هواء بارد ، فارتعشت ••
ومرت لحظات تطايرت الى وجهى فيها بعض الاتربة المتراكمة فى قلب الممر •• كما تطايرت بعض الاوراق ، وجاءت ورقة والتصقت بكتفى ولما اردت ان أزيحها من فوق كتف الجاكتة وجدتها متعلقة بها وملتصقة فيهـــا •• كما يتعلق العاشق بمعشوقه ويلتصق به •• فاندهشت •• ولما بحثت الامر •• وجدت الورقة ملوثة بسائل لزج قد تبقى من آثار حلاوة طحينية •• فحمدت الله لانها لم تكن ملوثة بسائل لزج آخر ••



وابتسمت ثانية ومكثت لحظات استعمل هذا السـلاح الرابع لأننى ابتسمت اكثر من مرة •

واحسست مرة اخرى أن بى رغبة شديدة جدا فى ان أحتسى دخان سيجارة • وان املأ به حلقى • وان « اقرقشه » بين فكى • او ادغدغه بين رئتى• ولكن ليس معى مايشعل النار وكانت السيجارة مازالت بين اصبعى فرحت اتأملها وانا اتعجب كيف يوجد الهشيم ولا يوجد الذى يشعله • وفجاة رأيت خيـــال نار تتقد فى الممر فنظرت ملهوفا فلم اتبين فى الغبش الذى يمتلىء به الممر سوى

خيال امرأة تقطع الممر وبين شفتيها سيجارة تلتهب وتزداد التهابا كلما أطبقت عليها بشفتيها • واستطعت أن أرى على ضوء هذا اللهب شفتيها الغليظتين والسجارة بينهما تتلوى وتتوجع كلما جذبت منها نفسا • كما رأيت نصف وجهها الأيمن المقابل لى • ورأيت معه كتفها ونصف خصرها المقابل وردفا واحدا من الردفين• كما تبينت ايضا ساقها وكانت بيضاء لامعة • وهـذا ما أقطع به لأنني رأيت الساق وسط الغبش الذى يشبه الظلام بيضاء تكاد من بهائها تلتمع اشبه بنور الصبح عندما يتنفس • وهممت فى لهفة أن اسرع خلفها لأشعل سيجارتى • ولكننى تريثت • أو لعلنى خجلت فمن يدرى ربما تظننى أريد السوء وان طلب اشعال السيجارة هو بداية الطريق الى هذا السوء • وكانت قد ابتعدت فهدأت انفاسى وفكرت تفكيرا معقولا • وقلت انها ذاهبة الى دورة المياه التى كنت أعرف انها فى مؤخرة العربة حيث تتجه هى • وانها لابد ستعود تقطع هذا الممر ثانية • وفى هذه اللحظات التى مكثت انتظرها كنت قد استرجعت شجاعتى ومن ثم جلست انتظر عودتها • ومرت لحظات ولكنها لم تعد • فنهضت وقلت أخرج انا الى الممر وأقطعه أنا ايضا • ولكنى ما أن فعلت واتجهت الى الباب حتى رأيت فى زجاج احدى النوافذ التى تقابلنى صورتها منعكسة عليها • وتعمقت الرؤية ولست ادرى لماذا سررت كثيرا عندما وجدتها هى• وخرجت سريعا الى الممر واتجهت اليها وكانت واقفة وقد أسندت رأسها الى الحائط المقابل لزجاج النافذة • وشبكت يديها خلف الردفين واختفت بكل هذا خلف الحائطالمستندة اليها • وكان بين شفتيها السيجارة مازالت تتقد • وكانت قد اجتذبت منها نفسا طويلا فاتقدت جمراتها وانعكس ضوء النار على شفتيها الغليظتين الشبيهتين أيضا بالجمر • حتى اننى سألت نفسى سريعا وأنا أقبل عليها - أى من النارين أشد اشتعالا وأشد حرقه - وكنت قد اقتربت منها بعض الشيء وأنا ابحث فى اهتمام عن شيء فى جيوبى ولعلنى تعمدت ذلك حتى لا تظن اذا طلبت منها ان اشعل سيجارتى اننى اتخذ هذا سببا لشيء • وعندما اقتربت منها • وقبل أن اقول لها شيئا • كانت قد سحبت يدها اليمنى من فوق الردف وانتزعت السيجارة من بين شفتيها وقدمتها لى دون اكتراث ودون أن تنظر الى وقالت وكأنها تخاطب شخصا آخر : ولع ••

كان صوتها هـذا الذى سمعته على قصر النغم الذى خرج الى أذنى • يكاد يكون مخيفا الى حد كبير • حتى أن يدى ارتعشت

وانا اتناول من يدها السيجارة • كان في نغم هذا الصوت أشياء كثيرة متجمعة فيه دفعة واحدة •• هل هو صوت رجل ؟ هل هو صوت امرأة ؟ هل هو فحيح أفعى ؟ هل هو عواء ذئب ؟ هل هو نباح كلب ؟ هل هو حشرجة قطة تموء ؟ هل هو أنين لبؤة تتعذب ؟ هل هو نداء أنثى لرجل •• أى رجل ؟ وتعمقت الرؤية مرة أخرى •• وتعمقت هذه المرأة عن كثب كانت جميلة الى حد كبير • ولكن هذا الجمال تعلوه غبرة • أشبه تماما بالذهب عندما يخرج من النار بعد صهره وقبل أن يطلى ويلتمع في عينيك ذهبا • وكان شعرها الأسود الطويل ، منكوشا ، تتهدل خصلاته الطوال وتتطاير مع الهواء فتارة فوق الجبين وتارة حول العنق • ومرة يغطي الصدر • الذى تركت نصفه الأعلى مفتوحا حتى كاد بصيص من النهد يلوح للعين • وقد ظننت أنها تعمدت ذلك وأنها تركت زرار البلوزة الأعلى الذى يغطي مجرى الصدر مفتوحا • ولكني عندما نظرت الى الصدر نظرة سريعة • رأيت مكان الزرار ولم أر الزرار نفسه فقد كان مقطوعا • كما رأيت شيئا فوق البلوزة السوداء التي ترتديها يلتمع بياضا عند الكتف فظننته وريقة صغيرة بيضاء تطايرت واستقرت في هذا المكان • ولكني عندما تأملته سريعا مرة أخرى وجدته ثقبا في البلوزة • وليس هذا البياض الذى يلتمع نورا في العين ورقة بيضاء كما ظننت وانما هو ومضة تلوح من الجسد نفسه • وكانت احدى النوافذ التي أمامنا مباشرة قد تحطم زجاجها يتدفق منها الهواء في قسوة كما تتدفق الرصاصات من بندقية سريعة الطلقات تماما • فتشجعت وقلت لها وأنا أشير بيدى الى بعض مداخل عربة القطار •

ـ اما أن تجلسي في بعض هذه المقاعد واما أن تبتعدي عن هذه النافذة التي تحطم زجاجها •

فحاولت أن تبتسم • لأن شفتيها اختلجتا كما تختلج شفتا طفل مستغرق في النوم نامت امه • وقالت :

ـ ولماذا بسببي هذا الهواء ؟

ـ انه مضر للغاية •

فقالت ومازالت تبتسم نفس الابتسامة :

ـ وما الفرق بين الذى يضر والذى لا يضر ؟

فاندهشت وان كنت قد وجدتها مناسبة لاطالة الحديث • وربما مناسبة للتعارف فقلت :

ـ فرق كبير جدا • فمثلا هذا الهواء الذى يتـــدفق من هذه النافذة كالرصاص قد يسبب المرض• والمرض يسبب الموت •

وكانت ماتزال واقفة مرتكزة على قدم • وكأنهـــا أرادت أن ترتكز على اثنتين • لأن جسدها اهتز فى ثقل كما يهتز فى ثقـل الفرع المحمل بالعناقيد وقالت ولكن وهى تضحك هذه المرة :

ـ وما الذى يضر فى الموت ؟

ـ هل تريدين أن تموتى ؟

فهزت كتفيها • فاهتز معهما شىء فوق الصدر • حتى كدت اهتز انا أيضا وقالت ومازال هذا الشىء يهتز ويهزنى معه :

ـ ربما ••

فانتهزتها فرصة وقلت :

ـ أنا لا أظن أن مثل هذا الجمال • وهذا الشباب • وهـــذه الأنوثة التى خلقت للحياة تفكر فى الموت •

فلم تجب وانما اعتدلت فى وقفتها وفتحت حقيبتها وتناولت منها سيجارة ولم تخرجها من علبـــة وانما تناولتها من بين عدد من السجاير كانت مبعثرة فى قلب الحقيبة واستطعت أن أرى فى قلب الحقيبة مع هذه السجاير المبعثرة منديلا صغيرا ورغم انه كان نظيفاً الا اننى لمحت به عدة تمزقات • كما رأيت « اصبع احمـر » من النوع الرخيص وقطعة مكسورة من مرآة • ولما أغلقت الحقيبة ووضعت السيجارة بين شفتيها وحاولت انا أن أشعلها • فقد كانت علبة الثقاب التى أعطتها لى مازالت فى يدى ، ولما حاولت ذلك وانطفأ العود ثلاث مرات من شـــدة الهواء • قالت وهى تتحرك وتسير بجانبى فى الممر :

ـ فعلا هذا الهواء لا يحتمل •

ودخلت معها احدى العلب الفارغة فى قلب العربـــة • ولما جلست واشعلت سيجارتها راحت فى هدوء تنفث دخانها فى صمت قاس مرير • مما جعلنى احس انها تريد أن تصمت • ولاتريد أن تتحدث • فاحترمت هذه الرغبة • وان كنت خشيت أن يدوم هذا الصمت الى أن يبلغ بنا القطار نهـــايته • ولا أدرى لماذا أقلقنى التفكير فى هذا • ولذلك قلت وأنا أنظر الى ذلك النور الذى يتدفق من ثقب البلوزة من عند الكتف • وأقارن بينه وبين مثيل له كان يتسرب الى عينى من خلال فتحة فى الصدر • قلت :

ـ هل ذاهبة انت الى القاهرة ؟

فهزت راسها دون أن تنظر الى وكانهـا ترمينى بالسخف لهذا القول • لأنها قالت :

ـ وهل يذهب هذا القطار الى ما هو ابعد من القاهرة ؟

ـ ظننتك مثلا ذاهبة الى بلد آخر اقرب لهذاالقطار من القاهرة •

ـ فارسلت نفسا طويلا امتد الى ابعـد من دخان السيجارة الذى كانت تنفثه الى الامام وقالت وهى تتنهد :

ـ ليت هذا القطار يذهب الى ما هو ابعد من القاهرة *
ولما لم افهم قلت ؟

ـ قصدت فقط أن أعرف الى اى بلد انت ذاهبة •

فابتسمت ورجعت بظهرها الى الخلف واستندت براسـها الى حائط الكنبـة الذى كان مصنوعا ذات يوم من الجلد • وقالت سابحة حتى لكأنها تخاطب شخصا آخر بالعلبة نفسها :
ـ أنا نفسى لا أعرف !

ثم أغمضت عينيها ••

فازدادت دهشتى حتى أننى أردت ان أقول لهـا شيئا آخر • ولكنى احسست أن بها رغبة حقيقية فى الصمت فاحترمت هذه الرغبة • وصممت انا ايضا • ورحت افكر فى هذا الانسان الذى أمامى • والذى لا يكاد يعرف من أمره شيئا • ولا حتى من أمر اللحظة التى يعيش فيها • ولست أدرى لماذا ازداد احترامى لهذه الفتاة • بل وجدتنى فجأة احترمها فعلا • لأننى سريعا ما سحبت نظراتى من فوق صدرها الذى برز واستعلى ويزداد بروزا واستعلاء كلما رجعت بظهرها الى الخلف • حتى تلكم الاشياء التى كانت تضطرب • أو تختلج أو ترف فوق الصدر اغفلتها أيضا • كمـا سحبت نظراتى ايضا من فوق الساقين العاريتين حتى جبين الفخذ الذى كان نوره وسط الظلام الذى نحن فيه يعلو نور الثقاب الذى نشعل به السجاير بين الحين والحين •

وهكذا جلست فى صمت واغمضت عينى أنا أيضـا ..• ولكنى بالرغم من كل ذلك كنت أرى كل شيء •• أرى الصـدر • وأرى جبين الفخذ • وأرى ثقب البلوزة الذى عند الكتف ينبثق منـه النور • وأرى المنديل الممزق الذى فى قلب الحقيبة • والسجاير

مبعثرة حوله • وأصابع الأحمر الرخيص وقطعة الزجاج المكسورة والتي هي من بقايا مرآة قديمة •

كما رأيت أيضا الثقب الكبير الذي في بطن حذائي وفي الفردة اليمنى على وجه التحديد والذي كنت أنساه ولا أذكره إلا إذا مررت فوق بلاط ساقع أو أرض ساخنة • ورأيت أيضا فيما رأيت الثقوب المتعددة التي في ثيابي الداخلية ، حتى الثقوب العديدة التي كانت في ظهر الفانلة التي ارتديها رأيتها بعيني • تماما كما لو كانت عيني في تلك اللحظة مصباح مكتب توجه نوره كما تشاء • يمينا وشمالا • الى أعلى والى أسفل • فيريك ماتريد أن ترى •

ومكثت كذلك لحظات لا أشعر بشيء ولا حتى بالوجود نفسه • الا عندما رأيتها منتصبة أمامي والحقيبة في يدها • وتهزني من كتفي وهي تقول :

- هيا لقد بلغ بنا القطار نهايته •

فأحسست على الفور بشيء من الخوف ، لأننا سوف نفترق • ورغم أنني أكره الفـــراق ولكنني لم أحس بكراهيتي الحقيقية له مثلما أحسست بها في هذه اللحظـــة • وأردت أن أقول شيئا • ولكنني ارتبكت وتلعثمت • وقضيت لحظات فعلت فيها أشياء كثيرة علها تخرجني من هذا الارتباك • فتحت عيني وتثاءبت • وأصلحت من رباط الرقبة • ودفنت قدمي سريعا في الأرض حتى أخفي عنها الثقب الذي في بطن الحذاء • ومع أنني قضيت في كل ذلك وقتـــا طويلا الا أنني كنت لا أزال مرتبكا •• وكانت هي قد تقدمتني الى الباب فنهضت سريعا • ورحت أسير خلفها وكأنني كلب يسير في ذلة يهز ذيله ويعقد الآمال على أن يلقى له هذا المحظوظ الذي يسير أمامه بلقمة من هذا الزاد الكثير الذي يحمله •

وكانت تسير أمامي على الرصيف ورأيت فيما رأيت جوربهـــا الذي به عدة ثقوب • والذي به أيضا عدة شروخ وعدة تمزقات • فأغمضت عيني على الفور • فقد تمثلت لعيني هذه الثقوب وهذه التمزقات والشروخ أشبه بماء حار ألقي فوق وجه جميل مشوهه • كما رأيت أشياء أخرى ووضحت لعيني أشياء أخرى • والتمعت في عيني أيضا أشياء أخرى • وظلت كذلك تسير وأنا أسير خلفهـــا حتى خرجنا الى ساحة المحطة • واتجهت هي الى الباب الخارجي • وكأنه عز على أن نفترق دون حتى كلمة وداع كما أنه قد عز أن نتصافح وأن تلمس يدي يدها • وبينما أنا أفكر في هذا وبينما هي

تقترب من الباب الخارجي ولم يبعدها عنه سوى خطوات حدث ما جعلني اتوقف فجأة عن السير • فقد انقطع رباط الحذاء • وخشيت أن أفقده نهائيا فتوقفت لكي أنتزعه من الحذاء لأحتفظ به في جيبي حتى يتيسر لي أن أوصله من جديد وأن أطيل في عمره مرة أخرى كما أطلت في عمره مرات سابقة • وبينما أنا كذلك رأيتها تلتفت • ولما رأتني واقفا وقفت هي أيضا • ولما أسرعت اليها • وجدتها متجهمة شبه مضطربة • ولما سألتها قالت وهي تنظر الى ساعة المحطة الكبيرة الدقاقة • وكانت تدق دقاتها الثلاث بعد منتصف الليل •

ـ ما كرهت في حياتي شيئا مثلما كرهت دقات الساعة •• أو رؤية ساعة •

فقلت مندهشا :

ـ لماذا ؟

لأنها الشيء الوحيد الذي يذكرني بالزمن • وبالوجود • وبأننا بشر نعيش كبقية الخلق •

فاندهشت اكثر وقلت :

ـ وهل نحن غير ذلك ؟

فضحكت حتى كادت تستلقي •

ولكنها تماسكت ، وقالت وهي تدس ذراعها تحت ابطي وتواصل السير بجانبي :

ـ أنا اثار خلق •

واصلنا السير • وكنا قد بلغنا ميدان المحطة ورأينا الناس • والطرقات والسيارات • ورحنا نمر بهذا كله وهي بجانبي صامتة مطبقة الشفاه انفاسها تتعالى حينا • وانفاسي تهبط احيانا • الى أن قطعنا شوطا كبيرا •• قطعنا الرصيف واخترقنا ميدان المحطة • وظهرت معالم الطريق الرئيسي الذي يوصلني الى بيتي • أو بمعنى اصح الى تلك الحارة الضيقة المتفرعة من شارع الفجالة حيث البيت الصغير المتواضع • وغرفتي التي في البدروم • الى أن قاربنا البيت تقريبا وهي مازالت تسير بجانبي مطبقة الشفاه • لاتنظر الى شيء •• أو يلفت نظرها شيء • من معالم هذا الطريق •• حتى أنني ظننتها تقطن معي في نفس الشارع • ان لم يكن

ايضا فى نفس البيت وظللنا كذلك نسير وسط الظلام الذى لايختلف لونه فى الشارع والحارة عن لونه فى نفس الغرفة التى أقطنها • الى أن توقفت فجأة عن السير وقالت :

- هل مايزال البيت بعيدا ؟

فاشرت لها بيدى انه قريب • واشرت لها بيدى دون أن أتكلم أو ألفظ حرفا لسبب وهو أن ذكر كلمة - بيت - قد عقدت لسانى • فأنا ليس لى بيت ان الذى لى هو غرفة متواضعة فى بدروم تحت الارض • واقول تحت الارض • لأن هذه الغرفة كانت فيما مضى بئرا للمجارى • ولما استغنى عنه بفضل مصلحة المجارى التى تولت عن الناس هذا الأمر فيما بعد •• اراد صاحب البيت أن يستغله فحوله الى مخزن • ثم أراد أن يستغله اكثر فحوله الى غرفة أو الى جحر يستطيع أن يقطنه أى جرذان أو أى انسان على حد سواء • ومن ثم أطلق عليه هذا اللقب الكبير - غرفة - ولذلك فهى تختلف عن جميع الغرف التى يقطنها الناس جميعا • وأهم شىء فيها - أنها لا تمتلىء بالأثاث الا اذا دخلها الذى يقطنها • أما اذا ارتديت ثيابى وخرجت غدت شبه فارغة تماما - باستثناء الكنبة (أو - الكرويتة - كما كانت تسميها أمى رحمها الله) والتى لها فى الغرفة اكثر من مهنة • فهى مائدة طعام اذا وجد الطعام •• وهى سرير للنوم اذا أردت النوم •• وهى المقعد المريح • اذا أردت أن تجلس وتستريح • وباستثناء أيضا القلة •والمشجب المصنوع من السلك الصدىء • وكذلك ترابيزة قديمـــة مجهولة التاريخ • غدت من كثرة تآكلها أصغر حجما من ذى قبل • ومن كثرة آثار أعقاب السجاير التى حرقت فوقها أو احترقت عليهـــا أشبه بالوجه المصاب بالجدرى •

وكنت قد تذكرت هذا كله دفعة واحـــدة • وأغلب الظن أننى أطلت التفكير أيضا لأننى عنـــــدما فطنت الى ذلك التفت اليها سريعا وقلت :

- هل تريدين شيئا قبل أن نذهب ا البيت ؟

- هل تقطن وحدك ؟

- نعم ••

وكأنها تأكدت من شىء لأنها قالت :

- اذن لابد من شىء نأكله •

- وكم عمره ؟

- أربع عشرة ••

فضحك وقال :

- اذن اشربى •• أهلا وسهلا ••

- شربت كثيرا !

- اذن أشرب أنا ••

وتناول الكأس وافرغها فيجوفه مرة واحدة•• ثم أمسك بالزجاجة وافرغ منها كأسا أخرى وشربها •• وكانت هى تنظر اليه ولكنها كانت تبكى دون أن تدرى لانه نظر اليها وقال فى دهشة :

- هل تبكين ؟

- لا أبدا •• ابدا ••

فقال وهو يضحك ••

- لابد أنك تحبين ابنك كثيرا ••

- لماذا ؟••

- لانك تبكين ••

ولما لم تجب قال هو :

- أنا أيضا أحبه كثيرا ••

ففغرت فاها وهى تقول :

- هل أنت تعرفه ؟

فمد يده سريعا هذه المرة الى الزجاجة وملأ لها كأسا وملأ له أخرى وقال وهو يناولها كأسها :

- اشربى •• أهلا وسهلا ••

فاضطربت يدها وهى تتناول منه الكأس واضطربت شفتاها وهى تسأله :

- أقول هل أنت تعرفه ؟

- أعرف من ؟

- تعرف ابنى ••

فقهقه عاليا وهو يقول دهشا لهذا السؤال :

- طبعا أعرفه •• أعرفه •• اعرفه جيدا •• اهلا وسهلا ••

ومد يده سريعا وهي ترتعش الي يده الاخرى التي كانت ترتعش أيضا ونزع منها ساعة ذهبية غالية وناولها اياها وهو يقول :

ـ خذى هذه الهدية اليه •• خذيها اليه •• الى ابنك •• نعم الى ابنك ••

ـ أقول هل أنت تعرفه ؟

ـ قلت لك طبعا طبعا •• وخذى ايضا ••

ومد يده الى جيبه سريعا وأخرج قلما ثمينا من الحبر وناولهـا اياه وهو يقول ويضحك •

ـ وخذى هذا أيضا هدية اليه ••

وأدارت الدهشـــة رأسها فدارت بها الارض ، ولكنها تماسكت وأرادت أن تنطق ، ولكنه لم يمهلها لانه راح يتلفت حواليه وكأنه يبحث عن شيء وهو يتمتم :

ـ انتظرى •• انتظرى •• وماذا أيضا ؟••

ومرة أخرى راح يتلفت حواليه •• وفجاة وكأنه تذكر شيئا فرح له كثيرا وهو يخرجه من جيبـه ويعطيه لهـا وهو يقول وما زال يضحك :

ـ خذى أيضا هذه السلسلة من الذهب انها اليه •• الى ابنك•• اجل الى ابنك •• اهلا وسهلا ••

وأراد أن يقول لها شيئا آخر ، ولكنه كان قد بذل مجهودا كبيرا في الضحك أتعبه الى حد فاستراح فى المقعد وأسند ظهره اليه وألقى برأسه فوقه وأغمض عينيه ••

وراحت هى تنظر اليه والدهشة تكاد تمسك بحواسها جميعا ـ من أين يعرف ابنها ؟•• وفتحت عينيها ونظرت الى كل هذه الهدايا التى مازالت تمسك بها وازدادت دهشتها •• ورنت في أذنيها بعض الكلمات فدهشت أكثر وأكثر •• طبعا طبعا أعرفه •• أعرفه •• ولكن من أين يعرفه ؟؟ وأحست بقوة تدفعها الى شيء ، ولذلك قالت له وكأنها تريد أن تنهره :

ـ انني أسألك هل أنت تعرفه ؟•• ومن أين تعرفه ؟••

وفتح عينيه ، وكان بفضل هذه الاغفاءة القصيرة قد استعاد قواه

ولذلك نظر اليها ، ولما أعادت عليه السؤال دهش دهشة غريبة لانه انفجر ضاحكا هذه المرة وراح يضحك ويضحك ·· ثم مد يده وهو يضحك الى الزجاجة التى كانت قد أوشكت على أن تفرغ ، وأفرغ منها كأسا وشربها ·· ولما مسح ذلك الشيء اللزج الذى كان على شفتيه قال وكأنه يقول شيئا مفرحا :

ـ انا أيضا عندى ولد ··

ففغرت فاها وأغمضت عينيها فيما يشبه الذهول فقد كانت تتوقع انه سيقول لها أى شيء غير هذا ·· ولما فتحت عينيها ونظرت حينا اليه وحينا الى الهدايا التى أعطاها وكانت ماتزال فى يدها قالت :

ـ يبدو انك تحب ابنك كثيرا ··

فأراد أن يضحك ، ولكنه لم يقدر هذه المرة وقال :

ـ كما تحبين أنت ابنك تماما ·· أهلا وسهلا ··

فاقتربت منه ووضعت يدها على كتفه وقالت وهى تضحك هذه المرة :

ـ هل عندك غيره ؟

ـ لا هو فقط ··

فأراحت ذراعها فوق كتفه وهى تقول مداعبة :

ـ لابد أنه جميل جدا ··

فتألق وجهه وزادت فرحته وهو يقول لها فى طفولة :

ـ مثل القمر تماما ·· انظرى ··

ومد يده فى جيبه وأخرج صورة لفتى فى العشرين من عمره جميلا جمالا رائعا ، وقال وهو يمسك بالصورة فى يده وينظر اليها معها :

ـ أنظرى هذه هى صورته ·· أنظرى الى عينيه ، أليست جميلة ؟··

ـ جدا ··

فازدادت فرحته وازدادت طفولته وهو يقول :

ـ أنظرى ·· أنظرى الى قوامه ·· أنظرى الى كل شيء فيه ·· أنظرى حتى الى الحذاء الذى فى قدمه ·· أليس جميلا ؟

ـ جدا •• جدا ••

فقالت وهى تمسك بالصورة وتريد أن تأخذها منه ••

ـ انه أجمل فتى رأته عينى ••

ولما أطبق بأصابعه على الصورة ولم يعطها اياها قالت :

ـ حفظه الله لك ••

فوضع الصورة فى جيبه وهو يهز لها رأسه شاكرا ويمسك بكأسه ويقول :

ـ اشربى •• أهلا وسهلا ••

فقالت وهى تمسك بكأسها أيضا :

ـ هل هو مقيم معك هنا ؟ ••

فضحك ضحكة عالية وقال وهو يخلص الكأس من بين شفتيه :

ـ انه سافر ••

ـ سافر الى أين ؟

ـ سافر الى بلدة بعيدة •• بعيدة جدا ••

ـ وكيف أخباره ؟ ••

ـ يعلمها الله ••

ولما أغمض عينيه قالت :

ـ ألا يكتب اليك ؟ ••

ـ بكل أسف ليس فى تلك البلدة مكتب بريد •• أهلا وسهلا ••

فأدهشها هذا وقالت :

ليس من بلد فى الدنيا لا يوجد فيه مكتب بريد ••

فقال وهو يضحك :

ـ بلد واحد فقط •• هو الذى سافر اليه أحمد منذ عامين ••

فأشفقت عليه وقالت :

ـ ومتى سيعود ؟

ـ أهلا وسهلا ••

قالها وهو يبتسم ومد يده التى كانت قد تخاذلت جدا الى الكاس التى امامه ورفعها الى ثغره ولكنها فجاة سقطت من بين اصابعه • فذعرت •

ومدت يدها لتناول الكاس من على الارض ولكنه قال لها :

ـ اتركيها •

ثم جاهد عينيه جهادا طويلا حتى فتحهما ونظر اليها وقال :

ـ هيا بنا • اننى أريد ان انام •• انا متعب اليس كذلك ؟

ـ لا ابدا ••

فرفع ذراعه ولكنه لم يمدها طويلا واشار الى خارج الغرفة على شمال الردهة التى امامها وقال :

ـ من هذه الناحية تجدين الغرفة الثانية •• اننى وحدى فى هذا البيت •• أجل اننى وحدى منذ أن سافر احمد •

وكانت قد نهضت فعاود النظر اليها وهو يقول :

ـ سأنتظر قليلا •• فقط أشرب هذه الكاس • اهلا وسهلا •

فنهضت دون أن تنبس وغادرت الغرفة ، وسارت شمالا مخترقة الردهة كما اشار اليها بالضبط ورأت بابا فتحته كان هو الباب الوحيد الذى رأته ولمادخلت منه ردته خلفها وتمددت فوق الفراش بملابسها ، حتى الحذاء ظل فى قدميها واغمضت عينيها وراحت تنتظر •

ومرت لحظات ولحظات •• ومع ذلك راحت تنتظر •• ومرت لحظات اخرى •• واخرى بعدها • ودقت ساعة كانت فى الردهة ثلاثا فذعرت •• ان الساعة تشير الى الثالثة صباحا • وهى تريد أن تنصرف ، انها لا تستطيع أن تمكث أكثر من ذلك •• ترى هل سيظل هذا الرجل يشرب حتى الصباح ؟؟

ونهضت فى تخاذل لا حد له وراحت تجر ساقيها جرا حتى فتحت الباب واخترقت الردهة وايضا الممر الصغير الذى بين الغرفتين وهى تكاد تكون مغمضة العينين • انها لا تريد أن ترى احدا • ولا تريد أن ترى شيئا • ان كل املها أن يأذن لها بالانصراف فقد بلغت الساعة الثالثة صباحا • ولا تستطيع أن تمكث أكثر من هذا الوقت • وفجاة تعثرت قدمها فى شىء ففتحت عينيها فيما يشبه الخوف • وما أن نظرت حتى وقفت ذاهلة

يكتنفها ذعر شديد • فقد رأته ملقى فى الظلام فوق الارض فاقد الوعي •• انها أبدا لم تصدق عينيها • ولذلك نظرت ثانية فأسقط فى يدها وهى تقترب منه وأسقط في يدها أيضا وهى تتبينه على بصيص الضوء الخافت المنبعث من فرجة الباب وتتبين رأسه الغارق في شيء غريب • كان راسه ملقى فوق رقعة لا يعرف لها لون • هل هى سائل لزج مخاطى ينساب من الفم • أم هى دم قان ينساب من منخاريه ؟•• وأغمضت عينيها في شيء لم تعرف له شبيها من قبل• هل هو الخوف؟ هل هو الفزع ؟ هل هو الوهم؟ هل هو الحزن ؟• وفتحت عينيها ونظرت ثانية ولكن ماهذا الشيء الغريبالذى يلتمع تحت خده وكانه يضع رأسه عليه• وكأنه يخفيه فى هذا المكان من وجهه حتى لا يتلوث بالدماء كما تلوث اغلب الوجه •• ونظرت ثانية وتعمقت هذا الشيء وبعد جهد استطاعت أن تعرف أنه صورة صغيرة لفتى جميل فى العشرين من عمره •• وجحظت عيناها وهى تناديه ولكنه لم يجب • وهزته ولكنه لم يتحرك • وظنته ميتا فامسكت أنفاسها • ومدت يدها وهى فى هذا الرعب الشديد نحو صدره لترى هل مات حقا فتهرب • أم هو مازال حيا فتقدم له صنيعا حتى ولو كان حياتها ••

واحس هو بيدها تقترب من صدره •• وظنها ستسرقه فحاول أن يحرك يده ولكنه لم يقدر • وحاول أن ينطق ولكنه لم يقدر ايضا ، ولما لم تستطع يدها أن تتعرف الحقيقة من فوق الثياب مدت أصابعها وفكت بعض أزرار القميص لتضع اناملها أو أذنها فوق القلب ولما أحس بيدها تقترب من صدره فعلا وتأكد من ظنه جاهد نفسه حتى تحركت شفتاه وتمتم فى توسل دون أن يفتح عينيه :

– اسرقى كل شيء •• فقط أرجوك أن تبقى لى الصورة •• ابقي لى احمد •

واغرورقت عيناها وغمرتها الدموع حتى أنها لم تر الطريق الذى تسير فيه بعد أن غادرت المبنى •• ولما تعثرت الرؤية عليها وهى تتعثر فى الطريق فتحت حقيبتها واخرجت منديلا لتجفف به هذه الدموع التى تحجب عنها الرؤية ، ولما فعلت احست بالمنديل وهى تمسح به عينيها جافا خشنا على غير العادة يكاد يجرح عينيها • فنظرت اليه ولما تبينته من خلال شبكة الدموع التى تملأ العينين ، وجدته ورقة من فئة الخمسة جنيهات كان قد وضعها لها في الحقيبة دون أن تعرف •



كان أهل قريتنا لا يعرفون عن أصلها شيئا . ولذلك تضاربت فيها الاقوال ، فريق يقول ان والدها كان بحارا عاش حياته في البحر وأن البحر هو موطنه الذى قضى فيه حياته ، وهو يحسب مرقده الذى انتهت اليه حيـاته ، اثر عاصفه هوجاء عصفت بمركبه وعصفت به معه ، وأنه غادر دنيـاه قبـل أن تجيء اليه ـ دنيا ـ بقليل من الشهور أو بقليل من الايام على حد سواء .

وفريق ينكر هذا ولا يصدقه ويقول عن امها أن أحدا لا يعرف عنها شيئا هى الاخرى . هل ماتت بعد أن جاءت بها الى الدنيا ، أم عاشت بعد ذلك طويلا وأنها مازالت على قيد الحياة وان كانت الفتاة تجهل مكانها . أم هى التى تجهل مكان الفتاة فكلاهما واحد لا يغير من الامر شيئا أيضا .

وفريق آخر وهو فريق العجائز والشيوخ الذين أقعدتهم السن وداست عليهم عجلة الحياة فتركتهم لا عمل لهم سوى الجلوس تحت الجميزة وفى ظلها ـ ان كان لها ظل ، وينقبون فى أسرار الناس وهم يلعبون « السيجة » ويقهقهون بصوت أجش مبحوح كأنه صوت السكين الباردة التى أكلها الصدأ ويشتد بهم السعال ، ويضحكون عندما يأكل الكلب الابيض الكلب الاسود وينتصر بذلك فريق على فريق ، كأن انتصار الحياة عندهم هو غلبة كلب على كلب .. أما

هؤلاء فكانوا يتشككون فى أمر الفتاة وكثيرا ما كان يصل بهم الشك الى حد اليقين وهو أن أم الفتاة غجرية من الغجر الذين ينزحون من الشمال وقد حملت فيها سفاحا وجاءها المخاض عندما بلغت القرية فوضعتها فى زقاق من أزقتها وانصرفت دون أن تلتفت الى وراء ومن يومهـا الى الآن لم تلتفت الى الوراء • ولذلك فهى لم تعرف حتى أن لها ابنة كما أن الفتاة لم تعرف حتى أن لها أما •

أما شباب القرية وفتيانها الذين امتلأت قلوبهم بحمية الشـباب وفتوته ويسيرون فى الارض مرحا يسدلون « القصة » فوق الجبـاه النحاسية المحترقة من وهج الشمس • ويحجبون نصفها ـ باللاسة ـ البيضاء اللامعة يلفونها فى احكام فوق نصف الجبين ونصف القصة ويتركون بعض الخصلات السـوداء الملتمعة تروح وتجىء فوق الجبين كله وهم يحملون الفؤوس فوق أكتافهم العريضة الصدئة التى فى صلابة ولون حديد الفأس تماما ويدقون الارض بأقدامهم الثقيلة كلما فاضت عليهم القوة وزادت حميـة فتوتهم • أما هؤلاء فكان لايعنيهم شىء من كل هذه الاقاويل عن الفتاة • والدها كان بحارا وابتلعه البحر أو لم يبتلعه • أمهـا غجرية نزحت من الشمال أم الجنوب أم غير غجرية أصلا •• ولدتها سفاحا أم ولدتها كما ولدتهم هم أمهاتهم ••

ان شيئا من هذا كله كان لايعنيهم فى قليل أو كثير • كان لايرفع من نظرتهم للفتاة أو يخفض منها •• ان الذى كان يعنيهم فقط هو أمر الفتاة نفسها •• أمر الفتاة ذاتها •• جمالها الرائع الذى كان يدعدع عيونهم كما يدغدغ العين وهج النور فى الليل •• فتنتها الصاخبة التى تعصف بهم كلما التقوا بها •• أنوثتها الملتهبة كأنها الجمر •• وجهها الوضاء كاصباحة الفجر • قوامها السمهرى الذى قد من فلق الصبح •• ولم يكن ذلك فقط هو الذى يؤرقهم أو يشغل بالهم •• وانما هناك شىء غريب آخر فى عينيها لم يكن له نظير بين العيون •• أو بين الجمال •• حتى لكأن الله تعالى لم يخلقه الا فى عينى هذه الفتاة فقط • ولما لم يعرفوا له اسما أطلقوا عليـه ـ السحر ـ الذى كمن فى الاستدارة وفى الهدب وبين الجفنين •• كان هذا الشىء أشبه بكحلة فى قلب العين تسللت الى الهدب الطويل لا لتجمله ولكن لترسل منه سهاما تخترق قلوب الشباب وتشويهـا وتجعلهم يصرخون فى صمت موجع كلما مزق السعير ذلك الشىء فى داخلهم • ولم يكن الشباب فقط وانما غير الشباب أيضا حتى أولئك العجائز والشيوخ الذين ترتعش أقدامهم وهم يسيرون على حافة



الدنيا .. حتى هؤلاء نقلوا السيجة من تحت الجميزة وانتقلوا معها الى الصفصـــافة الكبيرة بحضن الجسر ليروا دنيا كل يوم وهى خارجة من البحر حاملة الجرة فوق رأسها وقد أمسكت بأصابعها البيضاء الناصعة طرف ثوبها الاسود فكشفت بذلك ، ودون أن تدرى، عن ساقين ممتلئتين بلون العاج تخطران فوق الارض وتتسللان فوق سطحها كما يخطر القمر فوق السنابل فى ليالى الصيف الواهنة.. حتى هؤلاء كانت تحرقهم النار وتشوى قلوبهم وتزيدهم تحسرا على مامضى من أيام سوف لا تعود .

كان ذلك هو شأن الفتاة عند أهل القرية .. أما شأن الفتاة عنـد نفسها فكان يختلف عن ذلك اختلافا كبيرا .. فهى لاهية عن كل ما حولها لا تعرف من أمره شيئا ، أو هى على الاصح لا يهمها أن تعرف عنه شيئا .. لان الذى كانت تعرفه وتعيشه حقيقة هو أكبر من ذلك كله بكثير وهو بالنسبة اليها كان حياتها ودنياها بل ووجودها كله ، رغم غرابته وغرابة حتى التفكير فيه . كان الذى تعرفه وتعيش به وله فقط هو أن اسمها « دنيا » وأنها تريد أن تكون دنيا فعلاً وتكون دنيا حقيقية .. تريد أن تذهب الى سميتها وتتعرف عليها وتعرف حقيقتها وتحيا معها حيـــاة الأخت للأخت .. أما لا أهل لها .. لا وطن لها .. انها نشأت كالكلب الضال فى أزقة القرية تتلصص على اللقمة وتنقب عليها بين القمامة .. أما أنها اشتغلت خادمة فى منزل الشيخ عبد الصمد مأذون الشرع .. أو فى منزل الشيخ محمود العمدة .. أو فى منازل غيرهما من الناس الى أن كبرت وعرفت نفسها ، فهذا أيضا كان لا يعنيها ، كما أنه كان لايعنيها فى شىء أمر هؤلاء الشباب الذين يثقلون عليها ويقتتلون من أجلها ، فهؤلاء لاوجود لهم عندها ، انها لاتكاد ترى واحدا منهم . لا تكاد تعرف لهم طولا أو عرضا أو حتى لونا ، حتى هذه الرغبة الجنونية التى كانت تلح عليها بين الحين والحين نسيتها .. ونسيت معها أنوثتها ، بل نسيت حتى أنها أنثى ، وقد جعلها هذا – دون أن تدرى – تنسى أو تجهل ان فى هذا العالم شيئا اسمه «الرجل» وشيئا اسمه « المرأة » وحتى لو ذكرتهما وتعرفت عليهما فسوف لايكون من بينهما من يحقق لها أمنيتها ويستطيع أن يريها الدنيا التى تريد أن تراها ..

وقد سبب لها هذا الكثير من المتاعب التى لا حد لها لان الكل كان يريد أن يغتصبها ، ولما لم يستطع كان يريد أن يتزوجها ، فلما لم يستطع كان يريد أن يطردها من القرية .. وكان آخر هذه الاحداث بل لعله أعنفها فى حياتها ، حادثتها مع منصور أفندى ، ابن الشيخ

محمود العمدة ، عندما كانت تشتغل خادمة عنده فى البيت ، او فى الدوار ، كما كانوا يطلقون على بيت العمدة ، فهو رغم انه كان على شيء من الثقافة وتفتح الذهن والشباب المتشوف الطموح مما يجعل أجمل الفتيات فى القرية واكثرهن حسبا ونسبا تتمناه زوجا ، ورغم ثراء والده ثراء ملحوظا ٠٠ رغم ذلك فقد وقع كغيره من الشباب فى غرام دنيا ، وأراد فى أول الامر - كما أراد غيره أيضا - أن يخطفها خطفا ، ظنا منه أن ذلك سهل وميسور بين عزيز مثله وذليل مثلها ٠٠ ولما استعصت عليه الفتاة وافهمته أن الذليل هو وليس هى٠٠ اذا به يحبها حبا جنونيا ويصر على أنيتزوجها رغم معارضة أهله وأهل القرية جميعا ٠٠ ووضع الشاب حياته فى كفة وزواجه منها فى كفة أخرى فلم يكن فى مقدور الأب الا أن يوافق خوفا منه على حياة ابنه ٠

وكانت فرحة الشاب فى تلك الليلة لا حد لها ، غير أنها فرحة لم يمتد بها العمر غير لحظات قصار ، وقصار جدا ، وذلك عندما فوجيء الجميع برفض الفتاة لهذا الزواج ، وأنها هى التى وضعت حياتها فى كفة والزواج منه أو من غيره فى كفة أخرى ٠٠ ولما سألها الشاب فى ذلك اعترفت له بالحقيقة ٠٠ وهى أنها تريد أن ترى الدنيا وتحظى بسميتها ٠٠ ولما اخبرها انه فى استطاعته ذلك اسبلت هدبيها الطويلين ورنت اليه بكل مافيهما من رقى وتعاويذ وسحر وقالت جادة وهى تضحك ، وتضحك معها تلك الغمازة التى تعشش تحت الخد بين الفك والخال ٠٠ انه فعلا يستطيع أن يريها دنياه هو المحدودة بحدود القرية ، ولكنها تريد أن تراها خارج القرية ٠٠ تراها فى المدينة ٠٠ ولما حاول الجميع أن يقنعوها ولم تقتنع ٠٠ لم يجدوا بدا من طردها من البيت ٠٠ ولم يقبلها بعد ذلك فى بيته أحد ٠٠ حتى لايغضب العمدة ويغضب ابنه ٠٠

وخرجت الفتاة الى سطح الدنيا التى تريدها لا تلوى على شيء ولا تعرف أين ستبيت ، ولا من أين ستجد اللقمة ٠٠ ولكن من حسن حظ الفتاة أن الخير مازالت جذوره باقية من ملايين السنين تنبت كما ينبت العشب فى الصحراء يضيء ويثمر ويؤتى اكله الطيب ٠٠ كذلك كان بعض أهل الخير فى القرية الذين عطفوا عليها ومدوا لها جميعا يد المعونة ولكن الفتاة ارادت الا تكون عبئا على أحد حتى لا يطمع فيها أحد مرة أخرى ٠٠ واستطاعت بشيء من الذكاء أن تسلك طريقها منفردة لايعاونها أحد ولاتستعين هى بأحد٠٠ ولذلك اشترت قفصا كبيرا من الجريد وذهبت الى السوق فاشترت بعض

السلع مما لاغناء لاهل القرية عنها٠٠ علب الدخان ٠٠ والسجاير٠٠ وورق البفرة ٠٠ والكرملة ٠٠ والفول السوداني ٠٠ والشاي ٠٠ والعنتبلي أو احسن كيف كما يسمونه أحيانا٠٠وغير ذلك من الاشياء المماثلة ٠٠ ووضعت كل هذا في القفص الجريد الذي اشترته ٠٠ ومن ثم جلست بقفصها أمام مدخل حارة السقا بجوار المسجد المطل على الجرن ٠٠ وما أن عرف اهل القرية بذلك حتى تهافتوا عليها يشترون منها بضاعتهم بالقروش وسعادتهم بالنظرة ٠٠ ثم ينصرفون ويأتي غيرهم ، حتى النسوة في القرية ممن كن يسخطن عليها لجمالها ، كن يشجعنها٠٠حتى منصور أفندي ابن العمدة نفسه ورغم ما حدث بينهما ورغم أن الجرح القديم مازال حينا يلتئم وحينا ينزف الدم ٠٠ رغم هذا كان لا يشتري سجائره الا منها ولا يستريح لطريق يسلكه الا الطريق الذي تجلس فيه دنيا ٠٠ ودون أن تدري الفتاة ٠٠ ودون أن كانت تقدر أيضا راجت تجارتها رواجا كبيرا حتى أن القفص الكبير على سعته كان يمتلىء أول النهار ليفرغ مرة أخرى ويمتلىء أيضا أول الليل مرة أخرى ٠

ولما وجدت الفتاة أن الله قد رزقها من لدنه كل هذا الرزق أرادت أن تحرص عليه وتنميه وتزيد منه وتهتم به وتهب نفسها له ، فابتنت حانوتا في نفس المكان اقامته هي بيديها من طين القناة المجاورة ٠٠ وبقايا الحجر والاجر الملقاة خلف الجدران المتهدمة في القرية وكذلك من صناديق الخشب الفارغة التي أتت بها تحملها على رأسها من البندر ٠٠ وأقامت من ذلك كله حانوتا كبيرا ملأته بالكثير من أصناف البقالة والزيت والسكر والحلاوة الطحينية ، وعلب السردين والتونة والرنجة والزيتون والجبن بشتى أصنافه ٠٠ وما الى ذلك من اشياء أخرى تستحب عند أهل القرية ، وما هي الا الشهور والشهور القلائل جدا حتى كانت دنيا هي صاحبة أكبر حانوت لتجارة البقالة في قريتنا ٠٠ وبدأت تتمرن على البيع والشراء وتتمرس فيهما وتتقنهما ٠٠ كما بدا حانوتها الجميل في النهار ٠٠ يجمله أكثر في الليل ذلك المصباح الزجاجي الذي يروح في هدوء يصب شعاعه الهادىء على وجهها المنور فيبرز مواطن الحسن فيه ويزيده بهجة وجمالا٠٠ مما جعل حانوت دنيا ملتقى أهل القرية جميعا يجلسون أمامه فوق ـ الدكة ـ الخشبية في الليل يشربون الشاي الذي تصنعه لهم دنيا بيديها الجميلتين ويشربون معه أنفاسها العطرة ٠٠ ويتملون من طلعتها التي تملأ عيونهم نورا وقلوبهم فرحة ٠٠ حتى الشيخ محمود العمدة نفسه اتخذ له مجلس العمودية أمام دكان دنيا يفصل في قضايا الناس ويحل مشاكلهم عندها٠٠ وكثيرا ماكان القول ماتقوله

دنيا لا مايقوله العمدة ٠٠ وكثيرا ماكانت دنيا تحل أضخم المشاكل وأكثرها تعقيدا بشىء بسيط جدا وهو ربع أو نصف أقة من الحلاوة الطحينية التي اشتهرت هي ببيعها دون سواها ٠٠ فكانت تعطيها للغاضب فيرضى ، وللساهر فينام ، وللجائع فيشبع ٠٠ ولما عرفت دنيا بذكائها أن أهل القرية يحبون هذه الحلوى بالذات التى كانوا يطلقون عليها من نعومتها اسم « الفراولة » ذهبت الى البنــدر واتفقت مع موردها من القاهرة أن تأخذ هى امتياز بيعها فى القرية ولا يبيعها سواها ٠٠ وكان اسم هــذه الحلاوة الطحينية حلاوة البسيونى ، وهو اسم صانعها فى القاهرة ٠٠ وكان المنظر الذى تسعد به دنيا كثيرا ويملأ عليها حياتها فرحة وهناء ، هو منظر أهل القرية فى الليل عندما يتراصون أمام الدكان ويشترون الحــلاوة ويروح كل منهم يأكل من ورقة فى يده وهو لا يعرف بالتحديد هل هو فعلا يأكل الحلوى من الورقة التى فى يده ٠٠ ويأكلها بفمه أو هو يأكل الحلوى من وجه دنيا ويأكلها بعينيه ٠

وظل حال دنيا فى القرية هكذا يسير من حسن الى احسن ، ومن نعمة الى نعمة ، ومن ثراء الى ثراء ٠٠ ويقول البعض فى القرية ان هذا قد امتد بالفتاة الى سنوات طويلة ٠٠ ويقول البعض الآخر انه لم يمتد بها غير سنوات قلائل جدا حتى أسف أهل القرية على ماحدث أسفا مريرا ٠٠ فقد حدث أن مات الخواجا «مخالى» والخواجا مخالى كان من الاثرياء فى قريتنا وعرضت أملاكه للبيع بعد وفاته وشهرت أرضه في المزاد العلني فقد كانت له ضيعة كبيرة فى زمام قريتنا وراح فى ذلك الحين يتوافد على قريتنا الكثير من أهل المدن ومن أهل القاهرة بالذات لشراء ضيعة مخالى ومعاينتها قبل يوم المزاد ٠٠ وكان من هؤلاء الذين وفدوا لشراء أملاك مخالى فى القرية رجل في الخمسين من عمره يرتدى العمامة والجلباب الصوفى الذى يبدو من قدمه ورثاثته أنه يكاد يكون الجلباب الوحيد ، وأيضا من طربوش عمامته الاحمر الذى حوله القدم الى مايشبه السواد ٠ وهو فوق هذا ضخم الجثة الى حد كبير ولذلك فان أنفاسه تترى دائمة بصعوبة وحشرجة حتى لكأنه حيوان يموت ٠ له عينان واســعتان ولكنهما لزجتان دائما مما يجعل الذباب يتعرف عليهما سريعا ٠ وله ايضــا شــارب كث مغبر وخطه الشيب لم تكن به غير بؤرة واحدة سوداء هى التى بأسفل منخاريه ، ولعل سبب ذلك هو المخاط اللزج الكريه الذى ينساب منمنخاريه ويتسلل الىالشارب ويتجمع عليه حتى لتبدو شعرات الشارب من خلفه أشبه بالشروخ فى المرآة ٠ وجاء هذا الرجل يتسلل الى القرية ومعه خطاب توصية الى العمدة

من صديق له فى القاهرة ، يسأله فيه أن ييسر له مهمته · وكانت مفاجأة كبيرة للعمدة عندما عرف أن هذا الرجل بالذات هو نفسه الحاج بسيونى صاحب حلاوة البسيونى الشهيرة باسمه والمعروفة فى الاسواق جميعها وفى قريتنا بالذات · وأنه هو صاحب الثراء العريض الذى يملك مئات الافدنة غير الالوف من الجنيهات وغير مصنعه الكبير المعروف باسمه فى القاهرة وأنه جاء اليوم ليشترى ضيعة مخالى وانه سوف يشتريها مهما كان الثمن ·

وراح العمده يحدث الى ضيفه ويحدثه فيما يحدثه عن حلاوته الشهيرة فى القرية وأيضا عن شهرة بائعتها وكيف أنها اشترت من موردها فى البندر امتياز بيعها فى القرية · وسعد الحاج بسيونى بذلك سعادة كبيرة لان بضاعته رائجة فى كل مكان·· وسعد أكثر عندما تعرف على دنيا وراح يتحدث اليها بعد أن عرف من العمدة قصتها فى القرية ورغبتها الملحة فى أن تتعرف على سميتها ·

وبات الحـــاج بسيونى فى القرية تلك الليلة ولكنه لم ينم ولم يغمض له جفن وأيضالم يفكر فى المهمة التى جاء من أجلها وهى شراء عزبة مخالى ورغبته الملحة فى استثمار أمواله ·· وانما راح يفكر فى أشياء أخرى كثيرة غير حياته وغير المال الذى قضى حيـاته يحبه كل هذا الحب ، وانما راح يفكر فى الموت الذى يعيشه والعدم الذى يحياه ، وفى الخمسين سنة التى قضاها من عمره يجمع المال ويكدسه ثراء فوق ثراء ·ولما جمعه وتكاثر عنده بدأ هو يبتعد عنه وعن الدنيا بعد الخمسين ويترك كل هذا لمن ؟·· لايدرى ، فليس له من زوج ، وليس له من ولد ، وليس له حتى من أهل يرثونه · انه مازال ينام فى نفس السرير الحديدى الاسود الذى اشتراه من ميدان الازهر بخمسين قرشا من ثلاثين سنة لم يغيره ولم يتغير حتى فراشه ، ولم تتغير حتى حياته ، فيومه يقضى سحابته فى قلب السيرجة بين الزيت الكريه الرائحة ، والبذور العفنة ، ورائحة «الكسبة» التى لم يشم غير رائحتها طول حياته · ولا يستمع الا لأزيز المكنة التى يديرها الموتور الكهربائى بعد أن كان يديرها من عشرين سنة حمار أسود يبدو فيها والغمامة على عينيه أشبه بالاعمى يدور حول عصاه فى الظلام · ولم يسمع غير صراخ العمال وضجيجهم وأصواتهم المختلطة حتى أن اذنه لم تعد تميز غير هذا الطنين · حتى اذا ما جاء الليـل صعد الى أعلى السيرجة حيث تلك الغرف الثلاث التى لم يستعمل منها غير واحدة هى التى فى قلبها السرير الاسود الذى اشتراه من ثلاثين عاما ولم تحتو على غيره هو وصيوان أسود كبير به المال

الذى يجمعه ويضعه أكداسا فى قلبه ٠٠ حقيقة أن هذه الاكداس كبرت وارتفعت حتى غدت كالبناء الشامخ ولكن على أنقاض شىء اتضح أنه أغلى منها كثيرا اسمه العمر - اسمه الدنيا - اسمه المرأة - اسمه الابناء - اسمه السعادة ٠

ونظر الرجل وهو يتقلب على فراشه فى قلب الغرفة المظلمة التى يبيت فيها فى دوار العمدة ٠٠ نظر الى الحائط المظلم الذى امامه فتبدى له فى الليل كمرآة شاحبة ترتسم عليها صورته وكأنه يرى نفسه لاول مرة ٠٠ فرأى شيخوخته التى تسللت له خلسة فى أول الامر ، ثم علانية بعد ذلك ٠٠ شعره المغبر اثر الشيب الذى تناثر كما يتناثر زجاج بلورى فوق أرض سوداء ٠٠ بعض الخيوط المرئية، وغير المرئية ٠٠ التى راحت ترتسم على الوجه وتتركز بالذات عند الجفنين ٠٠ ثم العيون الواسعة التى أخذت تنغلق شيئا فشيئا حتى لكأن نظراتها الخابية مصباح كاد ينضب زيته وعما قليل سينطفىء ٠٠ ثم غير ذلك أشياء أخرى كثيرة كان يفتح لها عينيه خوفا وفرقا ، أيضا ٠٠ وظل كذلك طوال الليل يفتح عينيه فيرى خوفا ، ويغمض عينيه فيرى خوفا ، الى أن فتحهما آخر الليل على شىء مريح غاية الراحة ، مطمئن غاية الاطمئنان ٠٠ تسعد له العين والنفس معا ، وكان هذا الشىء هو - دنيا - التى راحت تتبدى لعينيه طوال الليل على مرآة الحائط المظلم فى قلب الغرفة ، فتنير الحائط حتى لتجعله الشمس الساطعة وتختفى فيغرقه فى لجة من الظلمات ٠

وهكذا ظل طوال الليل يفكر ويجهد التفكير ٠ ولكن ليس فى أكداس من المـال يريد أن يزيدها ٠٠ وليس فى ضـيعة مخالى يريد أن يشتريها ٠٠ ولكن فى أنوثة ملتهبة كالجمر ، ووجه وضاء كاصباحة الفجر ، وقوام سمهرى مشرق كأنه قد من فلق الصبح ٠ وعندما جاء الصباح لم يذهب الى ضيعة مخالى لمعاينتها ، وانما ذهب الى دنيا ، ولم تفكر الفتاة فى الامر كثيرا ، لانها لم تنظر اليه كانسان ، ولا حتى كرجل تقدمت به السن ودهمته الشيخوخة ، ولا حتى لثيابه رثت أم نظفت ، لذلك السائل اللزج الذى ينساب من منخاريه ٠ انقطع أو لم ينقطع ٠٠ انما عندما نظرت اليه لم تر فيه شيئا من هذا كله ان كل جارحة فيه نظرت اليها تبدت لعينها ورقة كبيرة من أوراق النقد ، حفنة كبيرة من المال ، وليس غير المال يوصلها الى بغيتها ٠٠ وليس هناك غير هذه المركبة تقطع بها اليابسة وتوصلها الى الدنيا التى تريدها ٠٠ ولذلك عندما جاء اليوم الثانى كان الحاج بسيونى قد انتهى من كل شىء حتى ثروته جميعها التى وهبها للفتاة ، ومن ثم أخذها من يدها وغادر القرية ٠

وفي المدينة ٠٠ في قلب القاهرة الواسعة لم يخلف القدر وعده مع الفتاة ٠٠ فما أن جاءت دنيا الى القاهرة وعاشت فيها بعض الشهور حتى تعرفتسريعا على سميتها التى ظلتحياتها تبحثعنها ، وتعرفت عليها فى أشياء كثيرة جدا لم تكن لتخطر لها على بال قط ٠ تعرفت عليهـا فى كل شيء ، فى الثياب الفاخرة التى كانت ترتديهـا ، فى السيارة الفخمة التى كانت تركبها ، فىالمسكن الصغير فوق السيرجة الذى أحالته الى جنة ٠٠ تعرفت عليها فى الطعام الشهى الذى كانت تعده لها أفخم المطاعم ، تعرفت عليها فى النهار تطوف بأرجائها تشترى ماتريد ، وتظفر بما تريد ، وتستمتع بما تريد ٠٠ وفى الليل تعرفت عليها فى المراقص والملاهى ودور السينما والتمثيل والسهرات التى كثيرا ما كانت تمتد بها حتى الصباح ٠ تعرفت على كل شيء فيها الا الرجل ، حتى الرجل الوحيد الذى تعرفت عليه فيها ـ وهو زوجها ـ كرهته ونفرت منه وجعلها هذا تكره الرجال جميعا وتنفر منهم ظنا منها انهم لا يختلفون عنه فى شيء ٠٠ وقد أسعدها هـــذا سعادة كبيرة فقد كان أخشى ما تخشاه أن تعرف شيئا غير ما كانت تعرف عن الرجل ٠٠ حتى الذين كانت تنظر اليهم نظرة اعجـــاب أحيانا كانت سحنتهم جميعا سريعا ماتنقلب فى عينيها الى سحنة الرجل الاول والاخير الذى عرفته فى حياتها ، وكان هذا ينفرها أكثر من نفورها اذا نظرت لزوجها ٠٠ حتى ذلك العاملالقمىء الابله الذى اختاره زوجها من بين عمال السيرجة جميعا ليكون فى خدمتها ٠٠ ويتردد على البيت ويتحدث اليها وتتحدث اليه ٠ والذى كان فى الليل يبيت فى الغرفة الخشبية فوق السطح ٠٠ لم تكن لتراه أو تعرف له لونا سواء تحدثت اليه أو لم تتحدث ٠٠ نظرت اليه أو لم تنظر ٠٠ ذلك لانها كانت دائما لاتنظر الا لنفسها فقط ٠٠ حقيقة كانت تنظر اليه أحيانا وتراه وتتعرف على سحنته وذلك عندما تنهره اذا هو صعد اليها من السيرجة بملابسه الرثة الملوثة بالزيت ورائحة البذور العفنة ٠٠ ورات قذارته ممثلة فى صدره العارى الذى ينساب عليه زيت «الكسبة» القذر الكريه الرائحة ٠٠حتىهذا الشاب لم تفطن يوما الى وجوده اذا دخلعليها البيت سواء كان معها أحد أو كانت وحدها ٠٠ فى خلوة من تلك الخلوات التى يحلو للمرأة أن تخلو فيها لنفسها ٠٠ أم فى غير هذا من أوضاع طبيعية ٠٠ ولعل الذى شجعها على ذلك هو حال الشاب نفسه ٠٠ فقد كان حاله هو أيضا يكاد يكون حالها من ناحية نظرتها للجنس الآخر ٠٠ فهو لم يعرف امرأة فى حياته ، أو بمعنى أصح لم يكن يعرف شيئا عن المرأة ٠٠ وقد عرف عنه هذا وسط عمال السيرجة جميعا سواء فتيات أو شبان ٠٠ ولذلك

عرف بينهم بالأبله ، وبعضهم كان يغلظ له فى القول فينادى على اسمه بالتأنيث .. فقد كان اسمه مسعود . فكثيرا ، حتى الفتيات اللاتى يعملن معه فى السيرجة كن يناديته بمسعودة .. أو سعيدة حتى دنيا نفسها لما عرفت ذلك ضحكت له .. وطربت منه ، وراحت تناديه هى الاخرى بـ ـ مسعدة ـ وكان هو لا يفكر فى ذلك أو يأبه له أو يستشعر بما فيه له من مهانة . بل كان يطرب لذلك ويضحك.. ولذلك ظلت دنيا تناديه بهذا الاسم متندرة احيانا .. وغير الحال دون أن تدرى على أن تناديه جادة كل الجد . مؤمنة بمدلول اسم التأنيث عنده كل الايمان ، حتى أنها اعتقدت ذات يوم بينها وبين نفسها اعتقادا راسخا أن هذا الشاب لم يكن رجلا كالرجال وان كانت له سحنتهم وبعض صفاتهم وان لم تكن كل صفاتهم .. وانما هو فى الحقيقة مثلها ومثل غيرها من النساء ، ولعل هذا هو الذى قرب الشاب اليها كثيرا جدا . وجعلها تعطف عليه العطف كله وتوليه الكثير من العناية .. كانت تشترى له الثياب .. حتى الثياب التى كانت تنتقيها له كانت تحرص على ان تكون الوانها فاقعة كثيرا مثل الوان الثيــاب التى ترتديهــا النساء .. وكانت تغدق عليه بعض الطعام ، بل كانت كثيرا ماتقاسمه ماتاكل من طعام شهى.. وكانت اكثر من ذلك تسمح له أن يراها أو يتحدث اليها وهى فى ملابس البيت . أو حتى فى ملابس النوم دون حرج من ذلك أو باس منه .. أو مهانة فى خلق أو خروج عن تقليد .. الى أن حدث ذات صباح حادث غير مجرى الكثير من الامور .. كانت دنيا فى ذلك الصباح ماتزال فى ثوب نومها الرقيق المشقوق من أمام والمشقوق ايضا من خلف مستلقية فوق الفراش الوثير ، منطرحة عليه فى اغفاءة نشوى كما تنطرح السمكة عارية فوق سطح الماء تستمتع بوهج النور .. حدث أن جاء مسعود ـ أو مسعودة ـ من الخارج .. ونقر على الباب نقرا هينا ليقدم اليهــا الخضــار واللحم وبعض الحاجات التى جاء بها اليها من السوق . أو على الاقل ليقول لها انه جاء من السوق وجاء لها بما طلبت . وعندما عرفت انه هو اذنت له بالدخول دون أن تفطن الى ما هى عليه من وضع أو من استرخاء أو من اغفاءة بين النوم واليقظة .. وفتح هو الباب فى بساطة كما تعود أن يفتحه دائما فى بساطة .. ودلف الى الغرفة ترتسم على وجهه المعتم تلك الاشراقة التى ترتسم عليه منذ أن عطفت عليه سيدته وأولته الكثير من عنايتها الخاصة ولاسيما ما اغدقته عليه وتغدقه عليه من طعام شهى .. ولكنه هــذه المرة ما أن توسط الغرفة ، واستطاعت عيناه أن تريا كل محتوياتهـا حتى اضطرب فجـأة

وارتعشت حواسه جميعا كمن اصيب بسهم وسقط سفط الخضار من يده واستدار سريعا وأراد أن يخرج ولكنه لم يستطع أن يحرك قدميه فظل جامدا فى مكانه ظهره اليها ووجهه الى الارض وشىء فيه يضطرب فترتعش معه شفتاه وتصطك أسنانه ، فاندهشت هى من الذى أصابه دهشة شديدة واستغربت وظنت أن شيئا ما كدبوس مثلا أو مسمار انغرس فى قدمه العارية أو سكين جرحتها ٠٠ ولما لم تر شيئا عند قدميه سألته ولكنه لم يجب ٠٠ ولما نهرته لكى يستدير اليها وفعل رأت شيئا غريبا جدا زاد من دهشتها فدققت فيه فاذا بعينيه محمرتين بلون الدم وينبعث منهما شعاع أشبه مايكون بألسنة اللهب يكاد يبلغها فى مكانها ويحرقها ، فظنته مريضا ، وسألته مرة أخرى عما به ٠٠ ولما كان هو نفسه لا يعرف ، فقد انفجرت الدموع من عينيه ، ومن ثم غادر الغرفة سريعا ، فازدادت دهشتها ونظرت اليه وهو يخرج بل لعلها أرادت أن تنهض خلفه ولكن نظرة عارضة منها وقعت على المرآة المقابلة لها فى الغرفة فرأت نفسها فيها ٠٠ وما أن رأت ما رأت حتى ذعرت ذعرا شديدا ومدت يدها فى سرعة يكتنفها الخوف ويكتنفها أيضا الاضطراب وطرحت عليها الغطاء ٠٠ ولكنها منذ تلك اللحظة لم تطرح عن نفسها التفكير الذى شغلها منذ وقع هذا الحادث الى أن أصبح ذات يوم هو شغلها الشاغل أو حياتها أو هو انسانها الذى تعيشه ٠٠ حقيقة أنها لم تخاطب هذا المخلوق منذ ذلك اليوم ٠٠ وان هى خاطبته فبقدر ٠٠ وحقيقة أخرى أنها لم تتندر معه كما كانت تتندر من قبل ٠٠ وحقيقة أخرى أنها لم تعرف سبب ذلك التحول ٠٠ وحقيقة أخرى هامة جدا وهى أنهــا لم تناده بعد ذلك الحادث الا باسمه الحقيقى ٠٠ باسمه الرجل ٠٠ بـ «مسعود» وفوق كل هذه الحقائق حقيقة أخرى فكرت فيها كثيرا ٠ ولكن بمرارة لم تستشعرها فى حياتها الا كلما فكرت فيها ٠٠ وكلما أرادت أن تبعدها عنها لم تبتعد بل تزداد منها قربا وتزداد بها التصاقا ٠ وهى ما كنه تلك النار التى تشتعل فى عينى الرجل وترســل ذلك الشرر الذى يحرق ٠٠ بدليل أنه حرقها هى ؟

وفكرت فى غير هذا ٠٠ فكرت فى أشياء كثيرة ولكنها مؤلمة الألم له ، مؤذية الأذى كله ٠٠ ومخيفة أيضا الى حد كبير ٠ وكان هــذا الخوف لا يلم بها الا كلما رأت الحاج بسيونى وتحصنت فيه ٠٠ تماما ما كان يلم بها الأذى اذا رأت مسعود أو تحدثت اليه ٠ وحاولت أن تعرف شيئا ٠٠ تعرف لماذا هذا يؤذيها وذلك يخيفها فلم تعرف أيضا ٠٠ ان كلا منهما لا يستطيع أن يخيف أو يؤذى حتى بعوضة ٠٠ ان هذا لا عمل له طوال اليوم الا أن يملأ كرشه بالطعام وجيبه بالمال الى أن

يجيء الليل فيعطيها هي المال تكدسه في درج « البريه » ويأخذ هو كرشه الكبير ويستلقى على الفراش يزفر كالثور الذبيح .. ترسل حنجرته تلك الاصوات الخشنة المبحوحة التى لا تنقطع أبدا الا اذا انقطع نومه .. وهذا أبله تافه .. أحب الروائح اليه رائحة الزيت «والكسبة» والبذور العفنة الملطخة بها ثيابه دائما حتى نضح الثوب القذر على جسده فزاده قذارة فوق قذارته .. فمم تخاف اذن ، وفيما هذا الأذى اذن ، أو فيما الأرق أو هذا الجفن الذى لم يغمض منذ ذلك الحادث .. منذ أن شاهدت تلك العيون المنطفئة الرمضاء تتفتح فجأة على ذلك الجمر يشتعل ويرسل ذلك الشرر الذى يحرق .

ونظرت في وسط الليل الطويل الذى احتواها الى الفراش الذى تنام فوقه فرأت فيما رأت الحاج بسيونى وهو يغط فى نومه يعلو كرشه الكبير وينخفض كالقربة تفرغ وتمتلىء .. والى أنفه الكبير أيضا يخرج منه ذلك الصوت الكريه مختلطا بذلك السائل القذر ينساب فوق شاربه وشفتيه فيزيده قذارة على قذارته .. وامعنت النظر فى هذا حتى لكأنها تراه لاول مرة .. فخافت وكادت تصرخ فى الليل لولا أنها رأت شيئا طمأنها وأراحها وأثلج صدرها كثيرا ، وذلك هو وجه الحاج بسيونى نفسه الذى رأته منورا تنطبع على كل جارحة من جوارحه ورقة كبيرة من أوراق النقد ، أو حفنة كبيرة من المال ، ولما استشعرت الهدوء وأحست السعادة تفيض عليها قامت لتستلقى على الفراش بجانبه وتغلق عينيها على هذه السعادة وتنام حتى الضحى كعادتها منذ أن تزوجته .. ولكنها ما أن نزعت ثيابها وارتدت تلك الغلالة الرقيقة المشقوقة من أمام والمشقوقة ايضا من الخلف ، حتى سمعت صوتا هامسا رقيقا ينبعث من عند الباب ويختلط بنقر هين عليه ، فذعرت وخافت وأطبق عليها الخوف فلم تنبث . ولكن النقر الهين الخفيض على الباب والهمس الجميل من خلفه مازال مستمرا .. حقيقة فيه خوف ، وحقيقة فيه اضطراب .. ولكنه أيضا فيه عزم وفيه اصرار .. وغادرت الفراش فى حذر واقتربت من الباب لتفتحه ، ولكنها اضطربت وارتعشت يدها فلم تقو على مدها ووقفت خلفه تصغى الى تلك الطرقات الخفيفة التى تطرق بابها فى الليل وكأنها بصبصات كلب أليف يتمسح فى الباب ليفتحه ويدخل على سيده .. ولا تدرى لماذا زال نومها ووقفت تصغى مرة ثانية الى تلك الاصوات الهامسة التى انبعثت الى أذنيها فى الليل عذبة العذوبة كلها .. جميلة الجمال كله ، لولا اختلاطها أحيانا بزفير الحاج بسيونى الملقى على السرير يزفر كالثور الذبيح .. ومدت يدها فى عزم هذه المرة وفى رضا أيضا لتفتح الباب ولكنها

تراجعت أيضا ، ولعل سبب ذلك هذه المرة أن الطرقات قد توقفت فجأة ، واستعيض عنها بصوت حلو كأنه اللمس ، أو كأنه وشوشة الزهر ، يقول :

ـ أنا مسعود ..

ـ ماذا تريد ؟..

ـ أريدك انت ..

وتلاشى الصوت ، وتلاشى الهمس ، ووقفت هى صامتة لا تنبث تصغى الى شيئين اثنين : دقات قلب يتعالى فى الليل حتى ليكاد يوقظ ذلك الرجل الضخم الجثة النائم فوق الفراش يزفر كالثور ، وبعض أصوات أخرى تختلط فى أذنيها فلا تميز منها سوى صوتين اثنين كأنهما النغم فى الليل يتهامسان ويتساءلان :

ـ ماذا تريد ؟

ـ أريدك أنت ..

وفجأة احست بدوار شديد ، ودارت الارض وكادت تسقط فوق الارض التى تدور بها فى قلب دائرة صغيرة محدودة ، هى دائرة الباب المغلق الذى تقف خلفه لولا أنها بسرعة جنونية تكاد تسبق الغمض مدت يدها وفتحت الباب وخرجت منه بسرعة انستها حتى أن تغلقه خلفها ..

وفى غرفة ضيقة متهدمة فوق السطح ، تكدس فى قلبها ظـلام الليل كله وأيضا وحشته ، فتحت الباب ودخلت .

وفى قلب الظلام وقفت تتلفت حواليها .. تنظر يمينا فلا ترى شيئا .. وتنظر شمالا فلا ترى شيئا .. وتتحسس الارض بقدميهـا فلا تتعثر أبدا قدماها فى شىء .. الى أن اقتربت من نافذة صغيرة وفتحتها فتسلل بعض الضوء ثم كل الضوء .. فاستطاعت أن ترى كل شىء فى الغرفة .. ورأتها خالية تماما الا من حصير من القش المتآكل ، ونصف بطانية قديمة تنبعث منها رائحة عفن متكومة فوق الحصير .. وفوق الحصير أيضا حشية قديمة متآكلة قد برزت منها بعض نتف من القطن القديم الاسود كما تبرز تماما أمعاء كلب دهمته سيارة فى الطريق .. فخافت واضطربت وخرجت سريعا تضع يديها على عينيها من الخوف . وفى نفس السرعة ، وفى نفس الخوف راحت ثانية تهبط ذلك الدرج الخشبى القديم المتهدم والمتآكل والموصل

من السطح للمسكن •• ولما دخلت الغرفة وجدت نفسها فى جنـــون تصرخ في وجه الحاج بسيونى وتلكزه في عنف حتى اخرجته من نومه وسألته :

ـ أين مسعود ؟

ولما استيقظ الرجل من نومه ومسح على عينيه ومنخاريه وشاربه حوقل وبسمل واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم وهو يفتح عينيـه الملوثتين ، وقال :

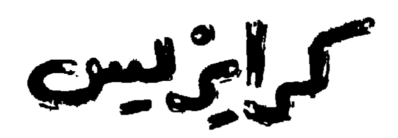
ـ لقد ماتت أم مسعود اليـوم ، وذهب الى القـرية ، وسـوف يعود غدا ••

قال ذلك ثم راح مرة أخرى فى سبات عميق •• فوقفت جامدة تنظر الى عينيه وهما تنغلقان شيئا فشيئا •• ووجهه الذى بدا لها لاول مرة عاريا ليست منطبعة عليه ولا على اية جارحة فيه اية ورقة من أوراق النقد •• ولا اية حفنة من المال •• ورأته كئيبا مشوها أشبه ما يكون تماما بمظاريف الخطابات القديمة التى نزعت من عليهـا أوراق البريد وبقى مكانها ممزقا مشوها يؤذى العين •• فأدارت وجهها سريعا وأرادت أن تبعد عينيها عن هذا المنظر الذى بدا كريها لعينيها كل هذا الكره •• فاصطدمت دون أن تدرى بـ « البريه » •• ولا تدرى لماذا استقرت يدها على درج من أدراجه بالذات وفتحته وراحت فيما يشبه الجنون تضع شيئا وتمزق شيئا كانت هى نفسها لا تعرفه •• ولا تعرف لماذا هى تصنعه ••

ولما جاء الصباح كان الناس فى الطريق يتجمعون حول «سيرجة» الحاج بسيونى يركضون خلف نتف من أوراق النقد •• بعضها ملقى فوق الارض •• وبعضها يتطاير فى الهواء •• قال البعض عنها انها ثروة الحاج بسيونى •• وقال البعض الآخر انها حياته ••

واحد فقط هو الذى عرف الحقيقة فيما بعد •• وهو شاب قمىء أبله•• ذهب الى القرية ليشيع أمه•• وعاد الى المدينة ليشيع دنياه •





الأشخاص

كرايزيس : الهة الموسيقى
باكيس : وصيفة كرايزيس
نوكريتس : كاهن المعبـــــد والاب الروحى لكرايزيس
مانو : العاشق

المنظر

« جناح الهة الموسيقى فى معبـد الفن القـائم فى الصحراء • حيث كرايزيس والوصيفة باكيس • يسمع صخب وضجيج واصوات تتعالى لا يميز منها شىء » ••

كرايزيس : « فى ضيق » ما هذا الصخب والضجيج الذى أسمع ؟•

بـــاكيس : ان عشاق فنك يا الهة الموسيقى برح بهم الشوق فحجوا الى معبدك ركعا وسجودا ••

كرايزيس : « بنفس الضـيق » اغلقى الشرفة • اغلقى الشرفة و وليسدل الصمت ستائره على المعبد •

باكيس : « وقد أغلقت الشرفة فابتعدت الاصوات » ان منهم ياربة الفن من جاء من اقاصي الصحراء لـ ...

كرايزيس : « مقاطعة » ليطرب ..؟ أليس كذلك ؟

باكيس : وليخر ساجدا على انغام قيثارتك ويسبح هائما على صوت مزمارك .

كرايزيس : « لنفسها » ويسبح هائما على صوت مزماري ..

« يتعالى الصخب والضجيج »

كرايزيس : « ثائرة » ما كل هذا ..؟ ما كل هذا يا باكيس ؟

باكيس : لقد أزرى بهم الضنى فراحوا يهتفون باسمك سكارى .

كرايزيس : ومع ذلك لن اعزف لهم شيئا .

باكيس : ان لهم ثلاث ليال يهيمون غراما .

كرايزيس : ولى عشر أصلى من اجلهم نارا « ملتاعة » ان النار تكاد تحرقني يا باكيس .

باكيس : معاذ الله أن تمسك نار يا الهتي ..

كرايزيس : « هائمة » نار الشوق الى ذلك المجهول تكاد تقتلني .

باكيس : انها ضريبة العشاق يا ربة الفن .

كرايزيس : « حالمة » اى عشاق يا باكيس ..؟

باكيس : عشاق مزمارك يا الهتي انهم يسعون الى معبدك ، كما تسعى الفراشات فى الليل الى معبد النور ..

كرايزيس : «ساخطة» تبا لهم . انهم يريدون وأد قلبى يا باكيس . وقد نسوا أن انفاسه هى التى تعطر لهم أنغام الناى ..

باكيس : « ضارعة » ليحفظ رب الارباب قلب الهة الفن .. ليحفظ رب الارباب قلب الهة الفن ..

كرايزيس : « محزونة » أيحرم الحب على من يرتله انغاما .. أيحرم العشق على من يرسله الحانا ..؟ « تبكى » .

باكيس : رباه . ماذا أرى . كرايزيس تبكى ..؟

كرايزيس : لان السبيل الى الضحك أعياها ..

« تسمع جلبة صاخبة خارج المعبد »

كرايزيس : ما الذى حدث .. ما الذى حدث ..؟



باكيس : سارى « تنصرف »

« كرايزيس وحدها »

كرايزيس : عجبت لناس هذه الدنيا ، يفرقون بين الزهرة والرى ، ثم يطلبون أريجها العبق •

« يتعالى الصخب والضجيج »

انهم يطلبون صوت مزمارى ، فهل اشفقوا على القلب المدنف الصادى ؟؟

« تعود باكيس »

باكيس : الهتى ••

كرايزيس : ماذا يا باكيس ••؟

باكيس : نوكريتس • كاهن معبدك وحافظ أسرارك يطمع فى المثول بين يدى الهة الفن •

كرايزيس : نوكريتس • يا له من كاهن ذرب اللسان جليل الخطر • ماذا يريد منى هذا الداهية ••؟

باكيس : المثول بين يدى الهته •

كرايزيس : ليدخل •

« تنصرف باكيس ويدخل الكاهن »

الكاهن : ليرع زيوس الاعظم الهة الفن ويحفظها ••

كرايزيس : تحياتى اليك يا أبى ••

الكاهن : تحيات كاهن المعبد الى الهته ••

كرايزيس : ماذا وراءك يا ابى ••؟

الكاهن : عبيد فنك يا ربة الفن• لكانى بهم حول معبدك يتزاحمون كالموج المصطخب ••

كرايزيس : لهم تحياتى ••

الكاهن : لقد اقتحموا ساحة المعبد ••

كرايزيس : ماذا يريدون ••؟

الكاهن : صوت مزمارك •

كرايزيس : صوت مزمارى ؟

الكاهن : اجل ••

كرايزيس : ماذا يصنعون به ••؟

الكــاهن : « دهشا » ماذا يصنعون به ••

كرايزيس : اجل يا ابى ماذا يصنعون به ••؟

الكــاهن : يغذون به قلوبا جياعا ، ويروون نفوسا عطاشا ، انه يا الهتى لارواحهم غذاء سماوى، ولنفوسهم شراب زلال•

كرايزيس : لم تعد بى يا ابى رغبة الى العزف ، لقد عافت نفسى حتى انغام مزمارى ••

الكــاهن : « دهشا » معاذ الله ، ماذا اسمع من ربة الفن ••؟

كرايزيس : الصدق ••

الكــاهن : « ماخوذا » الصدق !

كرايزيس : ابى أنصت الى •

الكــاهن : جوارحى اذان صاغية •

كرايزيس : اتحبنى ••؟

الكــاهن : وهل لا يحب الكاهن كهنوته ؟

كرايزيس : اتتبعنى ••؟

الكــاهن : وهل لا يتبع العابد معبوده ••؟

كرايزيس : اتنزل من عليائك • واهبط من سمائى ، لنعيش لحظة فى الحقيقة ••

الكــاهن : اى حقيقة يا ربة الخلود ••؟؟

كرايزيس : حقيقة الحياة ، وسر الوجود ••

الكــاهن : انت حقيقة الحياة ، وانت سر الوجود •• انت عطر الدنيا ، وعبير الخلود •

كرايزيس : « ساخرة » انا ••؟

الكــاهن : اجل ••

كرايزيس : انا من يا ابى ؟

الكــاهن : كرايزيس الهة الموسيقى •

كرايزيس : اننى أريد كرايزيس المرأة •

الكــاهن : « ماخوذا » رباه ماذا اسمع ••

كرايزيس : أراك غضبت يا ابى ، الم تقل بانك تحبنى ••؟

الكـاهن : بلى ولكن ٠٠

كرايزيس : « مقاطعة » أبى ٠ اتعبق الزهرة ان ظمىء الغصن ٠٠؟

الكـاهن : كلا ٠٠

كرايزيس : أيجرى النهر ان امتنع المطر ٠٠؟

الكـاهن : مطلقا ٠

كرايزيس : اتعزف القيثار ان انقطع الوتر ٠٠؟

الكـاهن : البتة ٠

كرايزيس : أتترى الانفاس ان نضب القلب ٠٠؟

الكـاهن : حاشا ٠

كرايزيس : لماذا اذن حرمتم الحب ؟

الكـاهن : « ذاهلا » ماذا أسمع من كرايزيس الخالدة ؟

كرايزيس : أخالدة أنا يا أبى ٠٠؟

الكـاهن : خلود مزمارك الذى يشنف آذان الزمن ٠

كرايزيس : وهل يبقى مزمارى ، ويبقى الزمن ٠٠؟

الكـاهن : يبقى مزمارك ، ويبقى الزمن ٠

كرايزيس : وتبقى أنغامى ٠٠؟

الكـاهن : ما بقيت كرايزيس الخالدة ٠

كرايزيس : « ملتاعة » وهل يبقى العدم ٠٠؟

« يسمع صخب الجماهير يتعالى خارج المعبد »

الكـاهن : الهتى ٠ عشاق مزمارك يكاد الضنى يقتلهم ٠

كرايزيس : دع حديث العشاق ياأبى ٠

الكـاهن : كيفـيا ربة الفن ٠ أيدع الزهر أنفاسه ؟

كرايزيس : حرام على الزهر أن يقطفه مزكوم ٠

الكـاهن : تعنين أزهار فنك يا الهتى ٠٠؟

كرايزيس : أعنى الحياة يا أبى ٠

الكـاهن : انها فى لحن يخلده الدهر مزمارك ٠

كرايزيس : « هائمة » لئن شقى القلب فلا رجع الكون صدى أنغامى ٠

الكـاهن : « ثائرا » رباه ماذا أسمع ٠٠ رباه ماذا أرى ٠٠ انك تثيرين سخط رب الارباب فى السموات العلى ٠

كرايزيس : أيثير رب الارباب أن يطاع القلب ٠٠؟

الكـاهن : لانه الموت من غير أن تدرى ٠

كرايزيس : الموت ٠٠؟

الكـاهن : اجــلّ ٠

كرايزيس : أحبب به ان كان يشفى جراحاتى ٠

الكـاهن : وعشاقك ؟ رباه ان الارض تميد بى ٠

كرايزيس : وهل مادت الارض بعشاقى ٠٠؟

الكـاهن : بل حملتهم اليك رجالا وركبانا ٠

كرايزيس : فلماذا هى تميد ان عشت امرأة ٠؟

الكـاهن : اى امرأة تعنين يا الهتى ٠؟

كرايزيس : « ثائرة » كرايزيس أعنى يا أبى ٠

الكـاهن : « هائجا » رباه ماذا أسمع وماذا أقول ٠٠ الهة تأثم ؟٠

كرايزيس : ما الحب يا أبى اثم ولا عار ٠

الكـاهن : ان اقترفته « فنانة » فهو الضلال والاثم والعار ٠

كرايزيس : من قال ذلك

الكـاهن : رب الارباب ٠

كرايزيس : انه الدنيا بما رحبت ٠

الكـاهن : « ثائرا » نزغات طيش يوقعها على العقل شيطان ٠

كرايزيس : بل همسات قلب ترجعها على الشفاه قيثار ٠

الكـاهن : أوهام تودى بالفن والقيثار ٠

كرايزيس : انها حديث القلب ٠

الكـاهن : « حانقا » حديث القلب غدار ٠

كرايزيس : يا لك من ظالم يرى الغدر فى صفاء الجدول الجارى ٠

الكاهن : بل فى عباب ليس له من قرار ٠

كرايزيس : لئن كان قلبى مغرقى ، فالبحر مسكنى اذن ، والقاع دارى ٠٠

الكـاهن : انه الفناء ٠

كرايزيس : أحبب به من فناء ٠٠

الكــاهن : « حانقا » انه النار ٠٠ انه الجحيم استعر ، انه التمرد على رب الارباب ٠

كرايزيس : ليس بضائرى أن أكون فى العصاة ٠٠

الكــاهن : « ذاهلا » اتعصين الاله ٠٠؟

كرايزيس : لم أعصه ٠٠ ولكنه صداح يبغى الحياة ٠

الكــاهن : رباه ، ما هذه الصواعق التى تقرع أذنى ٠٠ الهــة تطيع القلب ٠٠؟

كرايزيس : « منفجرة » هبنى اطعت القلب ٠ فما الذى يحدث ٠٠؟

الكــاهن : تثور الآلهة ٠

كرايزيس : فان ثارت ٠٠؟

الكــاهن : حلت اللعنة ٠

كرايزيس : فان حلت ٠٠؟

الكــاهن : زلزلت الارض ٠ واندكت معابد فنونها ٠

كرايزيس : « ساخطة » فان حدث ٠٠؟

« تقرع أجراس المعبد قرعا خفيفا »

الكــاهن : « مرتعشــا » رباه قرعت أجراس الغضب ٠٠ قرعت أجراس الغضب ٠٠ لقد اثرت سخط الآلهة يأربة الفن ٠٠ رباه ٠٠ رباه ٠٠ الرحمة يا زيوس ٠

« تقرع الاجراس »

الكــاهن : « مبتهلا » الرحمة يا زيوس ٠

كرايزيس : « خائفة » ابى كن عونى وكن سندى ٠٠ ادع لى رب الارباب ٠٠

« تقرع الاجراس »

الكــاهن : « راكعا » ايه يا رب الارباب ٠٠ ايه يا زيوس الاعظم ٠ اغفر لآلهة الفن هذه النزوة الدنيوية ٠٠ هــذه الذلة الانسانية ٠٠ اسالك يا زيوس بحق عرشك القدسى ٠٠ بحق اسمك الذى فى السماء ٠٠ وظلك الذى فى الارض ٠٠ أن تحفظ المعبد ٠٠ وتبارك الهة الفن ٠

« تقرع الاجراس »

الكـاهن : انها الدنيا يا رب الارباب •• املت عليها هذا الذى اثار سخطك ••

« تقرع الاجراس »

الكـاهن : اثار غضبك •• ارفع يا زيوس هذا السخط •• ان الهة الفن قد اثم تفكيرها •• قد ركبت عقلها ••

« تقرع الاجراس »

كرايزيس : « وجلة » التوبة •• التوبة •• يا زيوس •• التوبة لمن تاب •• والمغفرة لمن أناب ••

« تقرع الاجراس »

الكـاهن : انها تخر ساجدة اليك يا زيوس تسألك الصفح والمغفرة •• ان مزمارها الخالد يرتل التوبة انغاما والحانا •

« تعزف كرايزيس على القيثار فتكف الاجراس »

كرايزيس : « بعد أن عزفت لحن التوبة » اغفر زيوس يا أبى ••؟ أصفح رب الارباب ••؟؟

الكـاهن : « فرحا » لقد كفت اجراس الغضب •• حمدا لك يازيوس حمدا لك يا زيوس •

كرايزيس : أبى •• اين عشاقى ••؟

الكـاهن : حول المعبد يبتهلون من اجلك ••

كرايزيس : لتفتح الشرفة ، فقد هفا القلب لاحبابه •

الكـاهن : بل ثاب العقل الى رشده •

« على اثر افتتاح الشرفة يسمع الصخب عاليا »

اصـوات : تحيا الهة الفن •

اصـوات : ليحفظ زيوس معبد الفن •

اصـوات : ليرع رب الارباب كرايزيس الخالدة •

« كرايزيس تحيى الجمـاهير بأن تعزف قطعة موسيقية رائعة • ينتهى العزف تدريجا وعلى اثر الانتهاء تسمع همهمة الجمـاهير تتلاشى »

الكـاهن : أرأيت الى عشاقك كيف ينصرفون سكارى ••؟

كرايزيس : « حالمة » ورأيت كيف يحنـو العاشق على معشـوقه نشوان •

الكـاهن : وكيف يرجع همس الشفاه انغام الحانك ؟•

كرايزيس : « سابحة » ورأيت كيف يتأود الغصن وينثنى هيمان •

الكاهن : وكيف كان يصغى النسيم خاشعا •؟؟

كرايزيس : ورأيت كيف ترف الامانى •• وكيف تخضب القبل خدود العذارى ••؟

كم هى الحياة جميلة يا أبى ••

الكاهن : حياة فنك يا الهة الفن •

كرايزيس : حياة الناس يا أبى ••

الكاهن : أجمل ما فيها أنغام قيثارك ••

كرايزيس : « لنفسها » أنغام قيثارى ••؟

الكاهن : أجل • انها للروح راح ، وللنفوس ريحان ، انها للدنيا كأس ، ودن ، وحان ؟

كرايزيس : « محزونة » لئن واد الفن قلبى •• فلا كان ••

الكاهن : ماذا تقولين ••؟

كرايزيس : « باكية » آه لو تعرف ••

الكاهن : أتبكين ••؟

كرايزيس : من جرح يتنزى ••

الكاهن : أتتألمين ••؟

كرايزيس : من سهم أصاب القلب ، قتال ••

الكاهن : أى سهم تعنين ••؟

كرايزيس : سهم على القلوب دوار « تبكى » ••

الكاهن : « ضارعا » لتحرس عناية السماء قلب الهة الفن •• لتحرس عناية السماء قلب الهة الفن •• سأذهب الى الهيكل وأصلى من أجلك ••

كرايزيس : « باكية » أبى ••

الكاهن : « وهو يتلاشى » سأصلى من أجلك••سأصلى من أجلك•

كرايزيس : « منفجرة » أبى •• أبى ••

« تنشج نشيجا متواصلا •• لحظة صمت يسمع اثرها صوت قيثار ينبعث من مكان سحيق » ••
« يقترب العزف »
ما أجمل هـــذا الصوت •• ايها المجهول الذى

يقتلنى الشوق اليه‥ لكم يهفو القلب الى طلعتك.
« يقترب العزف » ‥
لكأنى به عصفور يغرد على أسوار معبدى ‥
سأدعوه ، سأطل عليه من الشرفة ‥
« تطل من الشرفة فترتد مأخوذة »
رباه أبشر هـــذا الذى أرى ؟‥ لكأنى به القمر يسطع نوره فى عينى .
« يقترب العزف »
أواه ما لقلبى يهفو اليه ‥ لكأنى به رسول الى القلب مبعوث ‥
« يقترب العزف »
أيها الملاك ‥ أيها المخلوق من عطر وشذى ‥
ما لقلبى رنحته رؤيتك ‥ أسكرته عيناك ‥
« ذاهلة » أيهـــا القلب ما لدقاتك تترى ‥؟؟
ما لأجنحتك تصفق فى الضلوع ؟؟ مالك ترقص مخمورا بين جوانحى ‥‥؟؟
« يقترب العزف جدا »
انه يقترب ‥ انه يقبل ‥ اقترب ‥ أقبل ‥ أقبل
« يعلو الصوت فجأة ‥ ثم يسكت ، ويظهر مانو من الشرفة متشحا بنور القمر وبسمات الفجـــر التى تلف جسده العارى ‥‥ »

مـــانو : عفوا غانية الدنيا ومفتان الوجود ‥
كرايزيس : « ضارعة » بربك ابتعد ‥ ابتعد ‥ لا ‥ بل اقترب ‥ أقبل ، أقبل ‥‥ ولكن لا ‥ لا .

« لحظة صمت »

كرايزيس : أيها الزائر الذى هيج كامن الشوق ، بربك قل من أنت ؟
مـــانو : عبد يصبو الى معبوده ‥
كرايزيس : « لنفسها » ترى من العـــابد ومن المعبود ؟ « اليه » ما اسمك ‥؟
مـــانو : مانو به الضنى اثرى ‥ به الغرام أضر
كرايزيس : « خائفة » وما الذى تريد منى ‥ بربك قل ‥ ما الذى دفع بك الى ‥‥؟
مـــانو : الحب ‥

كرايزيس : الحب ..؟

مـــانو : أجـــل ..

كرايزيس : « مخاطبة نفسها » وماذا تريد منى أيها الحب ..؟

مـــانو : برء قلب يشكو جراحاته .

كرايزيس : أيشفى القلب ..؟

مـــانو : قبلة منك تشفيه ..

كرايزيس : قبلة منى تشفيه ..؟

مـــانو : وتأسو جراحاته ..

كرايزيس : « حالمة » وتأسو جراحاته ..؟

مـــانو : وتعيد له ابتساماته ..

كرايزيس : وتعيد له ابتساماته ..؟

مـــانو : بل ترد اليه دنياه ..

كرايزيس : ما الدنيا ..؟

مـــانو : قلبان يتحابان ..

كرايزيس : ما الحيـــاة ..؟

مـــانو : زوجان يتعانقان ..

كرايزيس : ما الخـــلد ..؟

مـــانو : شفتان تلتقيان ..

كرايزيس : ما الفن اذن ..؟

مـــانو : بلا حب .. وهم تردده الشفاه .

كرايزيس : بلا حب .. وهم تردده الشفاه ؟

مـــانو : بل قلب تعوزه الحيـــاة ..

كرايزيس : « صارخة » خذنى الى احضانك ..

« تقرع الاجراس قرعا مخيفا »

كرايزيس : « خائفة » لنهرب ..

مـــانو : الى أين ...؟

كرايزيس : « بأعلى صوتها » الى الحياة .. الى الدنيا .. الى الخلد ...

« تقرع الاجراس قرعا مدويا »

« يظهر الكاهن وهو يهدر صارخا »

الكـاهن : رباه •• لقد حلت اللعنة •• لقد حلت اللعنة •

« يسمع دوى تحطيم المعبد »

الكـاهن : «مجنونا» أيتها السماء•• ايتها السماء ان المعبد يتحطم •• « بأعلى صوته » لقد ماتت كرايزيس •• لقد ماتت ايزيس ••

« يسمع صوت مانو وكرايزيس وهما يبتعدان »

مـــانو : ان الاجراس تدق ايذانا بتحطيم المعبد ••

كرايزس : « معانقة » بل تدق ايذانا بمولد امرأة ••



في هذا الكتـــاب

صفحة

كتب للمؤلف

الضـــــباب	:	مجموعة	أقاصيص	طبعـة	أولى
هتاف الجماهير	:	»	»	»	
يوم الثـــلاثاء	:	»	»	»	رابعة
أثار على الشفاه	:	»	»	»	ثالثة
أرض الخطايا	:	»	»	»	خامسة
نساء فى حياتى	:	»	»	»	خامسة
امرأة العزيز	:	»	»	»	ثالثة
قلب فى لبنان	:	»	»	»	ثانية
طريق الخطايا	:	»	»	»	رابعة
ساحر النساء	:	»	»	»	ثانية
اشياء لا تشترى		فاز بجائزة الدولة فى القصـــة العربية ووســام الفنــون من الدرجـــة الاولى			
امرأة غير منومة	:	مجموعة	اقاصيص	طبعـة	ثانية
هذا النوع من النساء	:	»	»	»	رابعة
شباب امرأة	:	رواية طويـــــلة		»	ثامنة
ست البنـــات	:	»	»	»	ثانية
سنوات الحب	:	»	»	»	ثانية
الأبواب المغلقة	:	»	»	»	أولى
شقة فى الجـــيزة	:	»	»	»	أولى
ثم لا شىء	:	»	»	»	أولى
يحدث فى الليل فقط	:	مجموعة قصص		»	أولى

صدر من كتاب اليوم

- خواطر وأحاديث .... احمد حسن الباقورى
- فنــان فى باريس ....فتوح نشاطى
- بلاد الله .. خلق الله .... أنيس منصور
- النساء لهن اسنان بيضاء .... احسان عبد القدوس
- أيام لهـا تاريخ .... احمد بهاء الدين
- الغاضــبون .... كامل زهيرى
- مصرى فى فيتنام والصين وكوريا .... احمد حمروش
- صـــور مقلوبة .... احمد رجب
- القمر فى انتظارنا .... مجـدى نصيف
- أم كلثوم التى لايعرفها احد .... محمود عوض
- رجـل من طين .... سعد مكاوى
- حقيبة فى يد مسافر .... يحيى حقى
- ليلة نام فيها الشيطان .... محمد التابعى
- القرآن فى شهر القرآن .... د. عبد الحليم محمود
- الكأس الأخيرة .... ابراهيم المصرى
- لست مسيحا أغفر الخطايا .... محمد زكى عبد القادر